كتاب



تأليف



M. HELMI SADEK

Directeur du Journal el Afkar

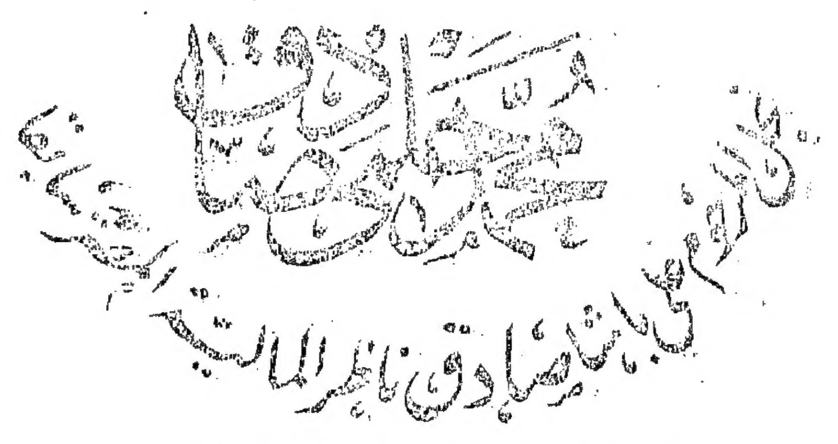
﴿ طبع بمطبعة جريدة الأفكار بشارع الشيخ ريحان بمصر ﴾

(سنة ١٣١٨ هـ — ١٩٠٠ م)

كتاب



تأليف



M. HELMI SADEK

Directeur du Journal el Afkar

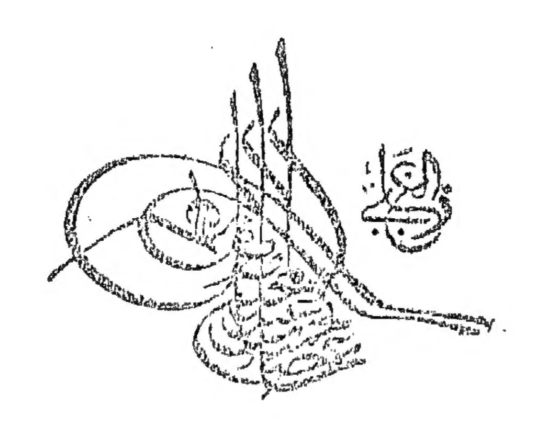
﴿ طبع بمطبعة جريدة الأفكار بشارع الشيخ ريحان بمصر ﴾

(سنة ١٣١٨ هـ — ١٩٠٠ م)

هذا أمير المؤمنين تأدّبو * يا ناظرين الى مثال جلاله
هـذا إمام العالمين تخشعوا * وتمسكوا بالعرش من أذياله
(عبد الحميد) السمح مولى جمعنا * يدعو الانام ليقتدوا بكماله



ربُّ السياسة والكياسة والعلى * يروي السعادة وجه طيف خياله
أيّده ربّي سرمداً وامدد له * أيدي المعونة في حفيظة حاله
ما قال (حلمي) للجميع تأدّبوا * يا ناظرين الى مثال جلاله



اهدا الكتاب

لجلالة مولانا ملك ملوك الاسلام ، وعمدة الدين وعماد الأنام ، أمير المؤمنين ، ونخر الملوك والسلاطين ، المؤيد بالروح الالهي والسبع المثاني ، سيدنا وإمامنا «عبد الحميد خان الثاني» صاحب العرش العثماني ، ومقيم الشعائر ، في كلّ الشعوب والعشائر ، وباسط الحدود ، على كل عوالم هذا الوجود ، أدامهُ الله ظلاًّ ظليلاً ومنحهُ عمراً طويلاً ،

من العبد الخاضع ، المخلص المتواضع ، كثير الهفوات ، غزير الزلات ، محمد حلمي صادق نجل المرحوم على باشا صادق ناظر المالية المصرية سابقاً

مولاي الامام العام ، ومن هو بعد الرسول وأصحابه سيد الأنام — أرفع بيد الرجاء والعبودية والاخلاص ، كتابي هذا الى مماليك يانخر الخواص وأستجديك نوال القبول ، فانهُ هو المسؤول المأمول ، أرفعهُ وأشعر من نفسي وضاعة القدر ومن سدتك رفعة الجناب ولكن شجعني ولأني

واخلاصي على هذا الاقدام • الذي سيكون دليل خير لبني الاسلام • ضمنت كتابي هذا يامولاي آيات آداب الأمم • وواجبات الرعايا ووظائف الهمم • مؤملاً هداية قومي الى السبيل الأمم • سبيل الأدب والفلاح • بحسن الأدب منك يا حفاظ الاموال والأرواح • ضمنته أحكام الدين الحقة • وبراهين الولاء الصادقة • وأمور الكمالات • والحكم المهذبات • والعظات المؤدّبات والمزاجر المشذّبات • ليعقل الناس معنى الامامة والخلافة • ويفقهوا حقوق الطاعة والحصافة • وليكونوا على هدى من دينهم نحو امامهم الكريم • وسلطانهم العظيم • ومليكهم الفخيم • ونبراس تقدمهم وسعادتهم • وسياج حياتهم ووجودهم • ألا وهو انت يا امير المؤمنين • ضمنته كيف يكونون مسلمين • وعلى سنن سلفائهم قائمين • ولدينهم وولاتهم مقيمين • ليحفظوا لهم في سجلّ الحياة قدراً • ويدوّنوا في صحف التاريخ منقبة سامية وفخراً • ضمنته تعاليم عصرية • تمثل لهم حقوق الراعي على الرعية • حتى لا يجدوا وجهاً للاعتذار • عن تلك الأوزار • التي انقضت ظهورهم واثقلت عواتقهم • واقعدتهم عن درك اسباب السعادة الحقيقية والكمال المحبوب • ضمنته ما لو قرأه الضالّ لاهتدى • والفاسق لاعتدل واقتدى • والشارد لرجع وثاب • والمارق لاسترشد وتاب • والفارّ الآبق لندم واسترحم • والواشي النمام لاستغفر واستعصم • كل ذلك جهاداً في سبيل رضاك يا مولاي • لاعتقادي اني لو حصلت على نعمة الرضاء منك لأيقنت برضاء الله عزّ وجلّ • ورسوله الاكرم الاعدل • لانك ثالثهما في وجوب الطاعة • ونوال الشفاعة • ولعلي أجد نتيجة لهذا الجهاد • وأجني ثمرة هذا الاجتهاد • فاحرز القبول • حيث أقول

﴿ اهداء الكتاب ﴾

بعد الهداة الراشدين إمامي * ﴿عبد الحميد﴾ خليفة الاسلام
فخر الملوك وتاج عز وجودهم * عون لدين الله والاحكام
بر بكل المؤمنين وراحم * شمل الضعاف بواسع الاكرام
محيي الشريعة بالخلافة والتقى * والعدل والتوفيق والالهام
عين العناية بل وسعاء حماية * كاف الكفاية راحم الأيتام
راء الرعاية للرعية كلها * ميم لمجد العصر والقوام
سين السعادة والسيادة سرها * واو الوفاء أخو الولاء السامي
هذا الكتاب رفعته لجنابه * لأحوز فضل السبق بالاقدام
لا غرو أن رفع العبيد لملكه * طرس الولاء مصحح الأرقام
(حلمي)لمولاه ﴿الحميد﴾ مقرر * حسن الخضوع وشاكر الانعام
يرجو القبول من المليك لعله * يلقى سعادة بدئه بختام

هذا طرس الولاء المصحح الأرقام . أبسطه بين يدي أمير المؤمنين وخير إمام . وأرجو به أن أنال سبق الاخلاص . في حظيرة سيدي فأكون له من الخواص . وقد آليت على نفسي أن لا أنفك عن خدمة ولائه السامي وحقوقه العامة . مرشداً عقول الأمة . ومنبهاً عواطفها الى خير خطة وأشرف منهج وفقني الله واخواني لأن نكون دائماً محرزين رضاء سيدنا ومولانا . ومالك زمام هدانا . أعزه الله وأيده ومكنه من الظفر باعدائه إن ربي قدير على مايشاء

(بناده)

محمد حلمي صادق

صاحب جريدة الأفكار بمصر



خطبة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوليّ الحميد . ذي العرش المجيد . الفعال لما يريد . سبحانه بعث في عوالمه روح الوزع فقامت على أكمل نظام . وبسط على أرواح الوزّاع أجنحة الاعتدال فعدلوا بين الأنام . وجعل عباده شعوباً وقبائل . للتعرّف بوسائل الارتباط وأيّ وسائل . ورأس على كل أمة إماما . ومكنه منها تصرفاً وذماما . وفصل في كتابه الحكيم . واجبات كلٍّ مع التعليم . والصلاة والسلام على روح الحياه . وعنوان الشرف والجاه . ونور القلوب . ونبراس غيب الغيوب . وعين الله البصيرة بالعباد . ورحمة الله المنبعثة في البلاد . الرسول الحليم الرشيد . ذي الخلق العظيم والرأي السديد . محمد بن عبد الله . القائم بأمر الله . المبلغ عن الله . وآله الاطهار . وصحبه الاخيار . ما أشرقت شمس النهار . على عاقّ أو بارّ .

﴿ أما بعد ﴾ فان من أكمل مواهب السعادة للمرء حصوله على نعمة الادب مع ربه جلّ وعلا ورسوله صلى الله عليه وسلم وامامه رضي الله عنه . ومن أجمل فصول الحياة التحلي بحلية الولاء الحقيقي والحب الصحيح للوازع الديني الاكبر الذي يمثل مركز الرسالة الأنور على عرش التشريع الأطهر

ولما رأيت من الهمم بعض التقاعس عن استكمال تلك المواهب السعيدة والتقاصر عن استدراك الأدب الصحيح مع جلالة الخليفة الاسلامي العام في هذا العصر المنير ألا وهو صاحب الشوكة والعظمة والاقتدار مولانا أمير المؤمنين السلطان ﴿ عبد الحميد خان ﴾ انبعثت فيّ روح النشاط لوضع كتاب (آداب الولاء وحقوق الخليفة) هذا الذي جعلته بمثابة دستور عام لاخلاق الأنام ومهذّب للعقول ومشذّب للنفوس ضارباً فيه عن التطويل والفضول . والتعقيد المملول ومستنداً على أقطع الآيات وأظهر الآثار . ورجوته تعالى أن يوفقني فيه الى سبيل الرشد والنجاح . ويعينني على تبيين المقاصد بكل وسائل الايضاح . حتى لا أدع مندوحة لمتكلف عذراً . أو عذلاً لمرتكب وزراً . فجاء بحوله تعالى وبركة الولاء الحق لصاحب الخلافة العظمى على أعدل منهج وأقوم عبرة . مبشراً أهل الاخلاص بخلود أرواحهم الطيبة في عليين . ومنذراً أهل الشر والمروق بان ستسجن نفوسهم الشريرة في سجين

فبعد التجرّد من الحول والقوة والاستعانة بمعونة الاله القادر على ما يشاء أشرع في المقصود . مستعيذاً به من نفثات الشياطين والاعداء ذوي الجحود واللدود . مفتتحاً هذا الكتاب الجليل بمقدمة أشرح فيها بطريق اجمالي ما يجب على الأمة لامامها والامام لأمته ومفيضاً الحديث فيما يمثل سوءات المفترين المرجفين وهاك المقدمة أولاً :

﴿ المقدمة الاساسية ﴾

﴿ لمراشد الكتاب ومقاصد الواضع ﴾

إن الشرائع الالهية قضت باحترام أولي الأمر وحظرت الخروج عليهم وفرضت طاعتهم على كل فرد من بني النوع البشري وطالبته بذلك بلا نظر الى الصبغة والنحلة قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) وعلى هذا درجت القوانين الوضعية فحرمت انتهاك حرمات الملوك والأمراء ونهت عن التطلع الى مناصبهم ومراتبهم وأوجبت على كل مكلف أن يظهر بأكمل مظاهر الولاء والاخلاص والأدب لولي أمره وحامي حماه . ومن شذ عن مراشد الشرائع الالهية والوضعية فلا يستحق الاعتراف بوجوده الحيوي الانساني بل يجب نبذه من محاضر الاجتماع البشري جزاء شططه واعتدائه على النواميس المقدسة

ومهما يكن من أمر المرء في حياته فلا يبلغ مبلغ الافتئات على شرائع العالم وليس في وسعه اكتساب سلطة عقلية يتسلط بها على العقائد الراسخة في عقول الكافة . ولو تخيل انسان أن لديه قوة فكرية تؤهله لمحاجة العالم أجمع فلا يليق به أن يفقد حظ العقلاء في حياتهم من الأدب وحسن النظر في عواقب الأمور . فاذا اندفع مع تيار غروره وفارق اجماع الامم وتشرد عن عقائد الكافة فلا يسمع قوله ولا يلتفت الى ثرثرته وبهتانه لأنه يعتبر ضالاً مضلاً وبغياً غوياً تائهاً في متاهة الجهل يطلب المجهول المطلق . وطالب المجهول المطلق في عرف أهل الحكمة والعلم مجنون فاقد العقل والتدبير وبعيد عن الشعور المعتدل وليس له وجدان صحيح

قلبتُ كثيراً في تواريخ الأمم وحوافظ حياتها فلم أجد أمة قلت إمامها لغرض ذاتي أو شهوة نفسانية الا في هذا العصر الذي دخلت على المسلمين فيه دخائل الفساد في أمثال التمدن والحضارة والحرية المبتذلة . فان الزعانف من حثالة الاتراك عمدوا الى التشرّد في أنحاء المعمور . والتقلب مع ظواهر الامور ونادوا بالحرب والويل والثبور . على كل مخلص لسيده وإمامه وولي أمره المقدس الأمر والولاء شرعاً وعقلاً

أجل : إن العقول اذا تضاربت في أمر رجح اجماع أكثرها وأهمل شذوذ الأقل . وهذه قاعدة عمومية توخاها العلماء في قضايا العلوم والمباحث العمرانية والترائي التحكيمي في كل حكومة وشعب . فمن الغريب أن يصرّ المرجفون المارقون على شذوذهم وهم نزر يسير لا يذكر بجانب السواد الاعظم وجمهور العقلاء من علماء وساسة . ومفكرين وذوي فراسة . حيث قضوا بان جلالة مولانا الخليفة ﴿ عبد الحميد خان ﴾ هو الامام الاسلامي المتبع قوله والواجب الخضوع لأمره ورأيه . فأين أولئك الفرقة المتشردون من تلك الامم الحافظة لذمام أئمتها وهي التي تحرّم على القلوب أن يختلج فيها شعور بغير الحقوق الولائية المقدسة .؟. أين هم من الآداب الحقوقية والوجدان الشريف .

قرر علماء الاخلاق أن المرء الخلو من الأدب لا يعتبر في الهيئة الاجتماعية بل يسقط من سجل الانسانية ويلحق بالبهم السوائم لان الادب هو القوام الاجتماعي والحياة السليمة من مذق النفار والشر . وأن من أوّليات الاخلاق توجيه مطالب النفس الى الاعتدال المشروع واكتساب فضيلة السبق في مضمار الكمالات البشرية . ويضمن هذه الكمالات ويحفظها من

عوادي التطرّف والخروج شعور النفس الانسانية بالحقوق المتبادلة واحترام مراجعها وآدابها . والمميز لصحة العقل من اعتلاله ظهور الانسان بمظهر المحافظة على مراشد الشرائع المقدسة التي تدعو الى احترام أولي الأمر وتقديس أميالهم وآمالهم . فيتضح لكل عاقل ان عدم الادب من أخس الخلال الممقوتة التي يخشى منها على مجد الامم وشرفها لانه خطيئة كبرى والخطيئة اذا ظهرت ضرّت صاحبها وضرّت العامة كما ورد في شريعتنا المحمدية . والاخلاق الرضية من أعظم وسائل السعادة وأسباب التقدم في الحضارة . ولا مشاحة في أن المؤدّب يرضى عنه كل الناس وقليل الادب مجفوّ مملول لا يذكر بخير أبداً . ولا يتمثل اليراع في تقويم أحوال المتشردين القررة الا بقول ابن الرومي :

اذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى * ودينك موقور وعرضك صين

فلا ينطلق منك اللسان بسوأة * فللناس سوآت وللناس ألسن

وعيناك إن أدّت اليك معائباً * لقوم فقل يا عين للناس أعين

ولا يجمل منا أن نزلق في مزالق الوقاحة كما زلقوا واستحقوا أن ينطبق عليهم قول القائل :

قومٌ همُ السومُ لوزال النعيمُ بهم * ما عدّهم أحدٌ الا من البقر

كبرٌ بلا كرم زهوٌ بلا حسب * عجبٌ بلا أدب هذا من العبر

ثم وقد ورد عن أكبر الصحابة وأتقاهم سيدنا أبي بكر الصديق أنه روى عن الرسول قوله صلى الله عليه وسلم (السلطان العادل ظل الله في أرضه فمن نصحه في نفسه أو عباده أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل الا ظله ومن خانه في نفسه أو عباد الله خذله الله . يوم القيامة يرفع للسلطان العادل

في كل يوم عمل ستين صديقاً كلهم مجتهد لنفسه) وليس العدل الا العمل على حماية حقوق الله وعباده وتحكيم أحكام الدين القويم . ولا يضمن العادل لعدله أن يرضى عنه كل الناس . فقد ورد

إن نصف الناس أعداء لمن * ولي الاحكام هذا ان عدل

ومنذا الذي يعميه الغرض ويقول ان جلالة مولانا السلطان عبد الحميد غير عادل .؟. مع أن دلائل العدل أظهر من أن تنشر وقد استوى في عدله الصغير والكبير ولم يشع عنه العسف والجور الا أعداء ولائه وعرشه الدعيم. هل يعتقدون أن العدل هو بذله المال لهم ومنحهم الآلاء والنعم من غير استحقاق .؟. إن هذ لهو الخلل الكبير . ألا لا يتوهم قاصر أننا نرمي الى أن جلالته يضنّ بما يملك على أحد فان مآثره الغراء تمثل لنا الكرم الحاتمي وأكثر صفاته الجميلة الجليلة تحكي لنا أخلاق الأطهرين الأصفياء

للشمس فيه وللرياح وللسحا * ب وللبحار وللاسود شمائل

كيف نرتاب فيما لجلالة مولانا من الهبات الوافرة التي غمرت كلّ الناس لا فرق فيهم بين فقير . وغني وصغير وكبير . وخفير ووزير . وصعلوك وأمير . وناهيك بمليك استوى في عدله وجوده كل الناس ولم يلق الا الثناء من الكل والرضاء العام

ألم تر أن جلالته يحترم الحقوق الانسانية ولا يصرفه التباين في الدين عن التفضل باكرام الاغيار من اليهود والمسيحيين . تالله إن من لم يحتفظ على الأدب مع هذا المليك المدبر لأمور عباد الله بالعدل والمساواة لا بد وأن تلتهمه المدلهمات التهاماً . على أن جلالته أحرز من جلائل آي الصفح الجميل والعفو الكريم ما يقف القلم عجزاً عن استكمال وصفه

وله من الصفح الجميل عوائدٌ * أسر الطليق بها وفكّ العاني

وكيف لا وهو الذي شاد عماد الآداب الحقيقية وضرب بيد الوزع الديني على النفوس الشريرة فقرت وهاجرت . ولو كان في سويداء قلوبها حب الدين لما هجرت دارها وخفت متطيرة بآثام الانكار والولولة والبكاء بسائر الأنحاء .

حفظ جلالته للدين آدابه وللمروءة أسبابها وللأمة حقوقها ولم يجرح احساساتها بما يضعف فيها روح الامل وقوة العزيمة . واذ رأى أنظار الاعداء تتطلع الى كعبة الحرم المصطفوي عمد الى انشاء سكة حديدية ليتي بواسطتها حمى الحرم من عاديات الأمم

تعرف في عينه حقيقته * كأنه بالزكاء مكتحل

اشفق عند اتقادفكرته * عليه منها اخاف يشتعل

نعم لجلالته بوادر تتقي شأن الملوك العظام الذين يهتمون بشؤون رعاياهم فان الله مالك الملوك وقلوبهم بيده يقلبها كيف يشاء . فتارة يتجلى الله على قلب جلالته بالبسط ويبعث فيه روح البشر والحبور والصفو فيعطي ويفيض كالبحر الزاخر . وطوراً يلهمه الله صوالح عباده ويتجلى عليه بالغيرة والحمية فيتحمس للمّ شعث المسلمين وجمع كلمتهم . وتوحيد سلطتهم . وتمجيد سمعتهم وتقويم نشأتهم بدولتهم . فيحسبه الجاهلون غاضباً لنفسه يقدم مصلحته على مصلحة أمته . مع أنه أغنى ملوك الارض قاطبة ولكنه باذل كل موارد ثروته في سبيل تقويم الدين وتأييد أركان الدولة المحروسة . ولم نسمع بمشروع جليل يتعلق بالأمة ودينها ومجدها الاّ ولجوده وكرمه اليد الطولى في الاعانة والبر والتبرع قبل كل انسان مع انه في واقع الأمر يملك كل المؤمنين وأموالهم

وأولادهم ليتصرف بهم وباموالهم في مرضاة الله ورسوله :

هو البحر غص فيه اذا كان ساكنا * واياك فاحذره اذا كان مزبدا

ولقد طالت المقدمة ولكنها على جدوى فاننا فيها نذكر بالحق والصلاح . والذكرى تنفع المؤمنين . الذين يجب عليهم جميعاً أن يلتفوا حول عرش هذا الامام الكريم ويطأطئوا رؤسهم له خضوعاً وخشوعاً ويأتمروا بأوامره ويجتنبوا نواهيه قياماً بشعائر الدين الحنيف الداعي الى ذلك . وليس المقام مقام مدح واطراء فان المدح والاطراء لا يتأديان بصيغ العظة والاعتبار الا اذا كان الحال على ما ذكرنا من هجر الناس لحقوق الولاء بلا توخ لحكمة في ذلك غير التأثر بمؤثرات الدخيل الذي يود أن يفرق مجموعنا ويحل عرانا ويشتت شملنا . وقد علمتم أيها الاخوان مما تقدم أن الأدب حفاظ الخلائق وسياج الحقوق بل وعدة المؤمن وقلب الايمان فان الانسان لا يصلح للتعبد والصلاح الا اذا ذاق طعم العبودية الصحيحة وألم بحوافظ الأدب المشروع خصوصاً مع إمام كريم

عشقَ المكارمَ فاستهانَ بذكرها * والمكرماتُ قليلةُ العشاقِ
وأقامَ سوقاً للثناء ولم تكن * سوقُ الثناء تعدُّ في الأسواقِ
فاذكر صنائعهُ فلسنَ صنائعاً * لكنهنَّ قلائدُ الأعناقِ
والثم أناملهُ فلسنَ أناملاً * لكنهنَّ مفاتحُ الأرزاقِ

هذا الهمام صاحب الهمم الشماء . والأيادي البيضاء . والصفات الغراء . والآثار الوضاء . والغيرة الصحيحة . والآراء الرجيحة . والعقل الكبير الوافر . والفكر السديد الذاكر . والفؤاد الواسع . والعواطف السوامع .

لهُ همم لا منتهى لكبارها * وهمتهُ الصغرى أجلُّ من الدهر

هذا الخليفة الذي يبرأُ الى ربه من حوله وجاهه ولا يميل الى اقتناء شيءٍ من مال الملك الذي بين يديه بل هو :

عفّ المكاسب لا تكدي حشاشته * كالبحر يلحق بالتيار أنهارا

والخلاصة : أننا نقصد في كتابنا هذا تنبيه القوم الى واجب مقدس محترم في شرائع الأُمم الهيها ووضعيها هو الأدب الحقيقي مع ولاة الأُمور مع بسط حقوق الخليفة العام على أُمم الاسلام في كل قطر وولاية وايالة حتى يظهر للناس سرّ الاتحاد المحبوب . والاجتماع المرغوب . والوحدة الاساسية للدين الحنيف . فبالرغم عن تهديد المنذرات لكل خائن مارق نقول لكل ذي خلق سافل . طريد فارّ غافل

أنت مثبورٌ غويٌّ مترفٌ * ذو غوايات ومسرورٌ بطر

ولا نبالي في وجهتنا هذه من لئيم لائم . أو متحرش فاجر آثم . أو وشاية بغيّ غاشم . وحسبنا شرفاً أننا نخدم الحق الصريح ونضرب على الباطل الزاهق ونطارد وساوس المغررين المفسدين ونظهر براهين ولائنا وخضوعنا لجلالة سلطاننا وامامنا أمير المؤمنين السلطان الغازي (عبد الحميد خان) أدام الله لنا أيامه مكللة بأكاليل السعادة والفوز العظيم

ولا يقدر حقود مهما كانت عقارب حقده تدب في قلبه أن يرمينا بالغرض فاننا بفضل الله ورعاية مولانا أمير المؤمنين في غنية عن الاستزادة من الدنيا وقانعون بما يسره الباري لنا من موارد الرزق واليسار . فلا نؤثر على اخلاصنا وشاية الواشين أو سعاية الساعين أو نميمة النمامين بل نسلي انفسنا بقول القائل :

اذا سرى خبر شاعت شوائبهُ * وكنت تكره أن يدري به أحد

فلا تقابله الاّ بالسلوّ ولا * يحزنك ماقال حسادٌ وماحسدوا

جعل الله خدمتنا خالصة لوجهه الكريم وحفظ يراعنا من الشطط والزلل ودفع عنا أسباب العلل والملل . اللهمّ احلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي . انك بالسرائر عليم . وبالحقوق بصير وبالتوفيق جدير . وللآداب كفيل . فانت حسبنا ونعم الوكيل

﴿ الباب الأول ﴾

﴿ في معنى الأدب وفيه فصول ثلاثة ﴾

((الأول في الأدب مع الله الثاني في الأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم))

((الثالث في الأدب مع الخليفة وولاته العام))

﴿ ما هو الادب.؟. ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أدبني ربي فأحسن تأديبي) والأدب شعار النفس الحية الكريمة التي تشعر بالاقدار وتجد بوجدان غير جامد وتذوق طعم الحياة وتتشوف للفضيلة باجتناب الرذيلة . ولا تعريف يشتمل على معاني الأدب وفصوله واصوله وواجباته غير — حكم النفس بحواكم النواميس وعوامل الشرائع — أو بالأحرى — تلبية الشعور لنداء الفضيلة ووصول صوت المزاجر الى الضمائر . فتنفعل وتتأثر وتنكمش عن بسط شهوات النفوس . وترجع الى التقيد بالناموس

وقد قال علماء الشرائع : ان من لا أدب له لا حياء له ومن لا حياء له

لا دين له ومن لا دين له فهو مهمل في الحياة تعبث به أهواؤه (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) وليس الأدب هو حفظ القواعد ومعرفة الفنون والعلوم فان ذلك بغير الأدب الصحيح يفعل في النفس فعل المحرضات على ركوب غارب الفساد والبعد عن الاصلاح . ويكون من هذا حاله ممن أضلهم الله على علم فباؤا بالخسران المبين . فالأدب حياة مكتسبة تتأصل بها في النفس أخلاق فاضلة وخصال كريمة تحفظ لصاحبها وسائل السعادة والاحترام كالشهامة والمروءة والذكر الحسن

ولم يرو لنا التاريخ أن ذماماً أو هجاء أو ثرثاراً مشاء بنميم معتدياً أثيماً يعد في صفوف أهل الأدب مهما كان علمه وحفظه ومهما بلغت به الرواية والدراية فان العماية تصحب فؤاده فتصرفه عن الكمال الى نقيضه . ولا تسل عن حال نفس تسجلت شقوتها . وتحكمت جفوتها . وتحققت سقطتها . وبلغ الناس عنها سوء التربية وفساد الأخلاق وانتهاك الآداب وترك الحقوق والتعلق باسباب العقوق . فانها نفس شريرة تعيسة بئيسة عرضتها النوازل للنواعل والعوامل وحركتها الشهوات لطلب الغايات وفارقتها الكمالات وجافتها السعادة فانحطت عن مراقي النجاح والفلاح . وانفلتت من عقد الاصلاح . وشط بها المزار فلا كانت ولا كان آلها . وعدمها أنفع من وجودها . لأن النفس التي لم تتأدب ولم تتهذب وتتشذب سقيطة في هوة الخطيئة . ومبتذلة بين العشائر المتدلة . ومعدودة من النفوس المطرودة . ومملوكة لشيطان الهوى وغواياته . ومأسورة لدواعي الأذى ووشاياته وسعاياته . فبئست هي من نفس افضل منها العجماوات السوائم . حيث تجردت من كل المزايا والمكارم . وانغمست في المغارم والمآثم . واشربت

حب الفساد والثرثرة بين العباد ولم تخش يوم التناد . يوم توقف مسؤولة وتسأل عما جنته الذليلة الموصومة بكل رذيلة . فلا تجيب بجواب . لسواد صحيفتها عند نقاش الحساب . ولو ان هذه النفس الأمّارة بالسوء عقلت لحياتها معنى ولم تفارق بشططها أوضاع الشرائع لفقهت ان الدنيا شيء باطل وزائل قال تعالى (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت . انما الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد) ودنيا عرّفها الله بانها نصبٌ من لهو الخ لا تستحق العناية ونبذ آداب الحياة ومراشد الشرائع المقدسة . لان الحياة الصحيحة تبعث في صاحبها أميالاً صالحة وآمالاً ناجحة وتحليه بحلية الادب الديني والمدني فتنقلب الدنيا في اعتباره من لعب وزهو ولهو الى حقائق توصل الى حقائق ومعارج ترفع الى عروش السعادة وذرى الفلاح فتكون مزرعة للدار الآخرة ومنبتاً لغراس الفضيلة الحقة التي تكلل صاحبها باكليل الاعتدال وتتوجه بتاج الفخار والجمال والجلال . ولا شيء يقدح في سمعة المرء ويشينها ويعرّضها للمزالّ المهينة والمزالق المنذرة بالخطر على الحياة والجاه غير فقد الادب وضياع الفضيلة . أما النفس التي تحلت بالادب وتدثرت بالحياء وتسربلت بسربال بطانته الخوف من الله وظهارته الرجاء فهي النفس المطمئنة التي يناديها ربها في حظيرة قربه (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) فانظر أيها القارئ الكريم الفرق بين النشأتين نشأة السوء ونشأة السعادة وبين النفسين النفس الشقية التعيسة المطرودة والنفس السعيدة المطمئنة المحترمة المعدودة المسعودة

انعقد اجماع العقلاء على أن أكبر الاعداء أخفاهم مكيدة . فلا غرابة

اذا تستر اعداؤنا بزعانفنا واتخذوا الأدعياء ، وسائل للادعاء ، فلاجل ملئ بطونهم لهباً ، وجيوبهم ذهباً ، ينبذون حسباً ، ويتركون نسباً ، ويقلون أدباً فليس العدوُّ من تذرع وتقدع ، انما العدوُّ من تخدع وتصنع ، ليس العدو من عرفناه عدوًّا انما العدو من كان منا وهجرنا طوعاً لهواه ، وعبادة للدينار والسمعة والجاه ، فقد قال الحكيم : أنظر في القول لقائله ، فان كان وليًّا فهو الولاء وان خشن ، وان كان عدوًّا فهو البلاء وان حسن : فمن اتينا بانف طويل ، لقيناه بخرطوم فيل ، ومن لحظنا بنظر شزر ، بعناه بثمن نزر ، وعلى هذا يظهر للناقد الخبير ان الخارج على جلالة مولاه هو العدو المفارق للدين والمعادي للمسلمين والنازع الى افساد ذات البين ، ولو كان في القوم عقل يعي ويعقل لتدبروا وعقلوا ان قيامهم في وجه الولاء بالعداء يمهد السبيل للدخلاء ، ويفضي الى البلاء والنزاء ، ولو كانوا يعلمون ذلك ويقصدونه فهم الخاسرون الذين تجب مقاتلتهم شرعاً ونظاماً وعقلاً وذماماً كما هو مبسوط في كتب الشريعة المطهرة التي جاء فيها أن الخارج على الامام خارج على الاسلام والخارج على الاسلام يقتل ويهدر دمه ومن هدر الدين الحنيف دمه وجب على كل المسلمين ان ينبذوه ويهجروا اقواله ويقبحوا فعاله ولا يمكنوه من ان يأوي اليهم أو يهوى الى محاضرهم أو عشائرهم

فيا أيها المسلمون بسائر انحاء المعمور — اعلموا ان دينكم يقضي بمقاتلة الخارج على امامكم والقادح له القاذع لسيره فاسمعوا حكم الدين ولا تأووا اليكم كل فار أو مارق لئلا تعدُّوا راضين عنهم مستنيمين الى غوايتهم فتعطوا حكمهم وحينئذ تستحقون عقاب الله وعذابه في الدنيا والآخرة ، فاسمعوا وعوا واتقوا الله في سلطانكم والتفوا حول عرشه المكين واعتدلوا معه اعتدالا

تكتسبون به رضوانه وتكونون أولياءه المستظلين بظل حمايته في هذه الحياة ويوم الدين • هذا نداءأخيكم فاسمعوه • ودعاؤه فأجيبوه • ونصحه فلبوه • فلا ملجأ لكم سوى امامكم • وروح حياتكم • وموئل وجودكم • ألا وهو جلالةالمولى الأكبر • والسلطان الأنور • والخليفة الاشهر • ولي الامر الشرعي • وأميرالمؤمنين صاحب الحق المرعي • أفندينا عبد الحميد خان الثاني فان لم تكونوا بخلافته وامامته وسلطانه مذعنين ومؤمنين فآمنوا واذعنوا وأيقنوا افان جلائل أعماله • وجمائل أحواله • ومعجزات أمياله • وكرامات اعتداله • وسر سرائر رجاله وعماله • قررت استحقاقه للعرش الأسلامي العام دون سواه وهذه عقيدتي التي لا ينصرف عنها فؤادي طرفة عين فاعتبروا واهتبلو في حبه ونصرته واطلبوا بلسان الولاء الصادق من ربكم ان يديم تأييده واعلموا أن الآثارالكريمة قررت ان عنوان صحيفةالمؤمن حسن خلقه ونادوا معي بلسان واحد وقولوا قول القائل

يا أمير المؤمنين أعزّك الله بعزّته • وأيدك بملائكته • وبارك لك فيما ولاك • ورعاك فيما استرعاك • وجعل ولايتك على أهل الاسلام نعمه • وعلى أهل العدوان والشرك نقمه • فلقد كانت الولاية اليك أشوق منك اليها فلا تصلح الاّ لك ولا تصلح الاّ لها

أتته الخلافة منقادة * تجرّ مع الفخر أذيالها
فلم تك تصلح الاّ له * ولم يك يصلح الاّ لها

بل أنت أزين منها لك وما مثلك ومثلها الاّ كما قال القائل

واذا الدرّ زان حسن وجوه * كان للدرّ حسن وجهك زينا
وتزيدنّ أطيب الناس طيبا * إن تمسه أين مثلك أينا

ويا أيها المؤمنون اذا سئلتم عن أولئك الفرزة فانكروهم فان الدين ينكرهم وانبذوهم فالاسلام ينبذهم وقولوا بلسان واحد

الحمد لله العليّ الماجد . أعطى على رغم العدوّ الحاسد . فلم يزل الله يزيدنا وينقصهم . ويعزّنا ويذلهم . ويؤيدنا ويخذلهم . ويمحصنا ويمحقهم . حتى بلغ الكتاب أجله . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فهذا هو الأدب الحقيقي الذي يؤهلكم للولاء . ويمكنكم من معرفة أسباب الهناء . خصوصاً اذا علمتم أن أولئك الفرزة المتشردين الطاغين الباغين لا يشعرون بمعاني الحياة ولا يدركون أسرار العمران لانهم لا عيش لهم ولا أصل ولا مرازق ولا مكاسب سوى التطلع لما في أيدي الناس من مال وجاه فانهم لا يدرون كيف لقمتهم ترد اليهم و

من ليس يدري كيف لقمته * فهلاكه من حيث لا يدري

قال جالينوس الحكيم : نطقك ترجمان عقلك وفعلك ترجمان أصلك فاعلم ما تقول وادرِ ما تفعل

فحبذا لو تأدّب القوم وراجعوا نفوسهم وعلموا مغازي أقوالهم ومرامي أفعالهم ومغامز أطوارهم ومرامز أوحالهم للطموا وجوههم . ولكنهم ويالالأسف يفعلون بلا وعي ولا دراية . ويقولون بلا عقل ولا رواية . فمثلهم كمثل الآلات الحافظة للاصوات المسماة في عرف القوم (بالفنوجراف) يحفظون دخائل الدخيل وتنطلق بها ألسنتهم في الانحاء فيسوءصدى أصواتهم وفراقع أهوالهم ويتأذى الادب وتنفر الانسانية وتجمدعواطف الولاء وتهتز أكتاف الدخلاء عجباً وطرباً . والبسطاء كلما رأوا سنّ الدخيل يضحك ظنوا أنهم أتوا أموراً خطيرة ذات بال في شرائع الأُمم يجب أن تدخل على

المسلمين لتنصلح أحوالهم بها ويستدركون بها أيضاً على سلطة الوازع الأكبر. الى غير ذلك من عبارات الخبل المرّ المريع ... أليس كذلك ؟..

هذا الذي قدمناه يصح أن يكون نموذجا لكرام النفوس . الحافظين لآداب الناموس . المقيمين على الولاء الخالص يستظهرون به على الخونة المارقين الذين باؤا خسارى سكارى حيارى يتيهون في الأرض هائمين على الوجوه ليس لهم مأوى ولا مثوى غير الفنادق والمراسح . ولو تهيكل الأدب وتمثل صورة لم يكن غير ما ذكرنا في هذا الفصل الذي جاء ميزاناً للأخلاق ومعياراً للصفات وقياساً للآداب وقضية منتجة لخيري المعاش والمعاد. اذ لم نترك شاردة من شوارد الحكم ولا بادرة من بودر العظات ولا حادرة من حوادر النفوس . بل جمعنا للأدب وسائله . وصححنا رسائله . وقلنا في مبدء الفصل أن الأدب في هذا ليس الغرض منه علم الأدب المدوّن في كتب القوم فان ذلك معروف ومحصور في قواعد وضعية وأمور فنية يرجع بها الى تأديب اللسن . وفهم السنن . ولا تأثير له على النفس البشرية التي جمدت عن الشعور الطيب الصالح . ومثل الذين يعرفون فنون الأدب ولا تهذب أخلاقهم وتتأدب حواسهم بأدب الحياة الصحيحة مثل العامة السذّج الذين لا يدركون معاني الكلام البليغ العالي . وسنفصل آداب الأمم وآداب ملوكها وأخلاق الرعية وحقوق الرعاة على أهل ولائهم . وقبل أن نختم هذا الفصل نذكر أن موضوع الكتاب عام يستخلص منه الخبير خلاصة تصحّ أن تكون دستوراً بين الناس على اختلاف مللهم ونحلهم . والغرض الحقيقي من وضعه هو إلجام الألسن الشاذة السالقة للعرش الحميدي المقدس بافتراء واعتداء يمثلان فساد الأخلاق وسوء النوايا . فنسأله تعالى أن يوفقنا ويحفظ فؤادنا

من خطور ما يفارق موضوع كتابنا هذا انه هو الملهم للصواب . والمهيئ الحكمة والمنطق لفصل الخطاب

﴿ الفصل الاول ﴾

﴿ في الأدب مع الله ﴾

قدمنا أن الأدب من حيث هو فضيلة تنمو مع الفطرة فهي موهوبة الاستعداد مكتسبة النسبة والحصول بالفعل —أو بالأحرى— أصلية في النفس ولكنها لا تظهر الاّ بالتخلق . وقد أعربنا عن مزايا الأدب الصحيح وقلنا انه الحياة الحقيقية الرافعة للنفوس من مزالّ الأطوار البهيمية والمحققة لشرف الانسان على سواه من مندرجات جنسه الحيوي . والآن نريد أن نتكلم على أقسام الأدب ومحالّه ومراجعه وواجباته وأحكامه مبتدئين بايضاح الأدب مع الحق تعالى الذي هو النموذج الكامل لسلوك أسمى المسالك وأنجاها وأسلمها

فالأدب مع الله يقتضيه شعور العبد بانه مخلوق متعرّض لعوارض الحياة شرها وخيرها . واذا تمّ اذعان العبد لربه بالقدرة والعظمة والكمال والجمال والجلال كان اذعانه داعية لتحليته بحلية الأدب معه في التزام الحدود واحترام الشعائر المقدسة واتباع الاوامر واجتناب النواهي . بحيث يحرص على أن لا يوجد الاّ حيث أمره الله . ولا يفقد الا حيث نهاه . ولا ينحصر هذا في أنواع العبادة والزهادة بل هو عام في كل مراشد الشريعة ومقاصد المصالح العامة . فكما أن الله أمر بالصلاة والصيام والحج والزكاة كذلك أمر بحسن المعاملة

والمعاشرة وسلامة الصدور من دواعي التمرّد والشذوذ والخروج والتنازع والشغار والتزاور والتقاطع والتخاشن ٠ ورعاية حقوق الناس من أوجب مواجب الأدب مع خالقهم ، فانه تعالى غنيٌّ عن الناس وعباداتهم ، وحقوقه مبنية على المسامحة أما حقوق العباد فانها مبنية على المشاححة ٠ خصوصاً وأن الخرق في عقائد العامة يتسع سريعاً وتترتب عليه أضرار جمة ٠ فان الانسان الفذ لو مرق وشذّ لا يضر شذوذه ومروقه بغير نفسه اذا هو سكن رمس العزلة وانفرد في مضيق جنايته وسجن خطيئته ٠أما لو أتبع الشذوذ بالالحاد وأنكر أحكام الورع وجاهر بالعداء ودعا البسطاء الى اتباعه فقد أحدث في الأمة أحداثاً ربما أصلت في ضعافها نزغة الفساد فيتسع الخرق على الراقع فيزول الأدب بسائر أنواعه مع الله ورسوله وامام المسلمين

وحينئذ فالأدب مع الله لا يتمّ لامرئٍ عصى رسوله وخليفته وافتات على اجماع الأمة وأحدث في العباد احداث السوء والفساد ٠ ومن تجرّد عن الأدب مع ربه فهو متمرّد جاحد القلب غير خاشع ولا مذعن بأنه عبد مخلوق بل طغى وبغى فيجب قتله واراحة العباد من شرّه ٠ وقد علمت أن الأدب متضامن المراجع يفسره قولك — من لم يتأدّب مع الناس فليس متأدّباً مع امامهم ٠ ومن لم يتأدّب مع الامام فليس متأدّباً مع الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ٠ ومن لم يتأدّب مع الرسول فليس متأدّباً مع الله ٠ ومن لم يتأدّب مع الله وجب قتله أو نفيه أو صلبه ٠ على أن الذنوب التي يقترفها العبد اذا كانت بينه وبين ربه خاصة فقد نزل بها على ساحة كريم عفوٍّ رحيم يغفر السيئآت ويعفو عن الزلات ٠ أما الذنوب التي يقترفها الانسان بين العباد فانها هي الذنوب التي لا تغفر

(الا اثنتـان فلا تقربهما أبداً * الشرك بالله والاضرار بالناس)

روي عن سفيان الثوري رحمه الله أنه نصح أحد أصحابه بقوله : ان لقيت الله تعالى كلّ يوم بسبعين ذنباً فيما بينك وبينه فهو أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين عباده . وينافي الأدب والحشمة أن يفعل الانسان في السرّ مايستحي منه في الجهر . بل ذلك ينافي العقل أيضاً فقدسئل لقمان عليه السلام : من العاقل ..؟. فقال الذي لا يصنع في السر ما يستحي منه في العلانية وان حسن طلب الحاجة نصف العلم والتودّد الى الناس نصف العقل والتقدير في المعيشة نصف الكسب الخ . وينافي الأدب أيضاً الكذب والتعوّد بالعادات المستهجنة والبدع الممقوتة والتطلع الى آلاء الناس وجاههم والتمني لها بزوالها عنهم والغيبة والجهر بالقول السيئ وعدم الوفاء فقد قال الله تعالى (انه لا يفلح الكاذبون) وأمرنا بالاستعاذة من الحاسد والحاقد وقال (ولا يغتبْ بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ..؟.) وقال تعالى (ان الله لا يحب الجهر بالسوء من القول) وقال تعالى (يا أيها آمنوا أوفوا بالعقود) وقال عليه الصلاة والسلام (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) وقال (دع ما يريبك الى مالا يريبك) وقال رجل لابن سيرين اني اغتبتك فاجعلني في حلٍّ . فقال لا أحلُّ ما حرم الله بل حكمه على الله . وقال حكيم : الصدق عزٌّ والكذب ذلٌّ . الكذب من ذهاب المروءة ومهانة النفس وقلة الحياء . وقال الشاعر

لا يكذب المرء الاّ من مهانته * وعادة السوء أومن قلة الأدب
لجيفة الكلب عندي خير رائحة * من كذبة المرء في جدّ وفي لعب

واذا فقد الانسان عاطفة الأدب وزال عنه الحياء وتقنع بالسوء وقلّ

المروءة والحشمة وتسربل بالمحنة والفتنة والبدعة واستظهر على ولاء الأمة بأخلاط فساده ودعا الناس الى جفوة الحقوق وجادلهم في التحبب الى العقوق فقد سقط من أعين أهل الرأي والعزيمة وباء بالخيبة والعار السرمدي وصاحبه شعور الخذلان الى أن ينتهي عن غيه وبغيه والا فهو الممقوت الملعون من الله ورسله والجنة والناس أجمعين

ولقد يجدر بي في هذا المقام أن أذكر بعض آيات من تاريخ آداب السلفاء مع ربهم في شدتهم ومحنتهم ليتذكر المؤمنون وليعقلوا أن الادب مع الله يقضي بلزوم الخشية والخشوع وتبادل الاخلاق المرضية ، واحترام أوضاع النواميس المرعية ، والدساتير المقدسة الشرعية ، خصوصاً وأن المؤمن الحقيقي يجب أن يكون ملماً بآداب حياته لأنه لا يخلو حاله من شدة أو رخاء ، أو عسر أو يسار ، أو ظلم وعدل ، وسعادة وشقاء ، وخلف ووفاء ، ونعمة ونقمة ، واجتباء وبلاء ، فهو لربه حيث يوجده ويخفيه ويظهره ، ولما كان هذا المقام هو مقام الأدب معه تعالى فلا مانع من أن نأتي على ذكر العظات المؤثرات لتلتئم جروح الفساد ، من أفئدة العباد ، وتزول الاضغان والأحقاد ، ويتولد الصلاح المصاحب للشعور الطيب بالواجبات العمومية .

ان السلف الصالح من الأنبياء صلوات الله عليهم الى من نحن خلفهم كانوا لا ينفكون عن مراقبة ربهم وخشيته سراً وعلانية والتوكل عليه والرهبة منه والرغبة فيه لا عنه والأدب معه بحسن العشرة مع معاصريهم والاخلاص لملوكهم وأمرائهم وخلفائهم . ومع ذلك لم ينج واحد منهم من بلاء أو شقاء أو محنة أو اختبار ، وكانوا يفرحون في الشدائد ويرونها أسباباً للفرج الحقيقي لقوله عليه الصلاة والسلام (أفضل أعمال أمتي انتظارها

فرج الله) وقوله (عند تناهي الشدة تكون الفرجة وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء) وقول الشاعر

ولا تيأسن من فرجة أن تنالها * لعلّ الذي ترجوه من حيث لا ترجو

وقوله في المعنى

اذا تضايق أمر فانتظر فرجاً * فأضيق الأمر أدناهُ الى الفرج

وكانوا رضي الله عنهم أكبر قلباً وأسمى فؤاداً وأعظم أمراً وأكمل يقيناً وأكرم نفساً وأوفى عهداً وأمكن اعتقاداً وأرسخ ملكة وأطهر سريرة وأزكى روحاً وأعرق نسباً وأشرف حسباً . واذا سمعوا قولاً للنبيّ صلى الله عليه وسلم أقاموا حدّه والتزموا جدّه وأيدوه ونصروه بالعمل والسير الصحيح الى وسائل الرضاء الحقيقي . واذا ابتلى أحدهم ببلية ظنها أدباً له وترفيعاً لمقامه أو توجيهاً لعناية ربه أو تقديساً لنفسه وتطهيراً حيث قال عليه الصلاة والسلام ان الله ادّخر البلاء لأوليائه كما ادّخر الشهادة لأحبائه . ثم ان البلاء في الانسان بمنزلة الدباغ يستخرج من الانسان ويصيره الى حالة يمكن الاستفادة منه . وقال الجنيد : البلاء سراج العارفين ويقظة المريدين وهلاك الغافلين . وروي أن جعفراً الصادق كان اذا أصيب يقول : اللهم اجعله أدباً ولا تجعله غضباً .

هذا ومن مقتضيات الأدب أن يتكمل الانسان بأخلاق كرام الصالحين الذين درجوا على سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ويقتبس من أسرار أسيارهم الطيبة السمعة الطاهرة لا ينخدع بخوادع الدنيا وزخرفها ولا ينصرف عن جادة الكمال المطلوب بصوارف الخيبة والخدعة الممقوتة . ويجمل بي أن أنقل نصيحة نصح بها الامام علي رضي الله عنه الى ابن عباس رضي الله عنهما

حيث قال له :

انك لست بسابق أجلك ، ولا بمرزوق ما ليس لك ، واعلم بان الدهر يومان يوم لك ويوم عليك وأن الدنيا دار دول فما كان منها لك اتاك على ضعفك ، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ، وقال كرم الله وجهه : لا تغترّ بالآمال ولا تحتقر صغار الاعمال فربَّ أسد مات من ذبابه وربَّ ملك أحوجه الدهر الى حبابه : وقال : أطردوا واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كنت ردف النبيّ صلى الله عليه وسلم فالتفت اليّ وقال يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، وتعرّف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن الخلائق لو اجتمعوا أن يعطوك أمراً منعكه الله لم يقدروا على ذلك ، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب فاذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، إن مع العسر يسراً

ما أجمل هذا الأدب وما أكمل هذا الشعور وما أفضل هذه التعليمات النبوية والصحابية في نفوس الذين يرغبون في أن يكون لهم نصيب من سعادة وسيادة ونوال ، لأسمى مناقب الرجال ، ومراقي الآمال والأميال ، خصوصاً اذا زدت عليها هذه الدرر المصونة ، والجواهر المكنونة ، والجوامع المأمونة والنفثات النبوية التي تعلم القلوب كيف تتشوف الى أخلاق علام الغيوب وتربي النفوس على آداب الوجود في ساحة العبودية الخالصة من شوائب أسواء السوى والغير وتشذّب نوافر الغرائز ، بافضل المكارم العزائز ، حيث قال المصطفى صلى الله عليه وسلم (من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فقد كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته)

ومن نفائس الأدب الغوالي أن سئل أحد الدهاقين . ماالمروءةفيكم ؟ :
فقال أربع خصال . أولها أن يعتزل الرجل الذنب فانه اذا كان مذنباً كان
ذليلاً ولم تكن له مروءة . والثانية أن يصلح ماله ولا يفسده فان من أفسد
ماله احتاج الى الناس فلا مروءة له . والثالثة أن يقوم لأهله فيما يحتاجون
اليه فان من احتاج أهله الى الناس فلا مروءة له . والرابعة أن ينظر الى مايوافقه
من الطعام والشراب فيلزمه ولا يتناول ما لا يوافقه

والأدب مع الله يدعو النفس لليقظة والتحصن من غوائل الفساد
والتحرز من دواعي الشطط والتوقي من كل ما يجعلها متكلفة تخشعاً أوخنوعا
وخضوعا . لان الخشية الالهية اذا حلت قلباً حلته بحلية الوفاء والشعور
الدائم وجلببته بجلباب الذل والافتقار اليه تعالى وحده والعزة والنفرة عما
سواه . وحينئذ يكون القلب منزلاً لأسرار سرائر الحقائق العلية . ومهبطاً
لأنوار الكمالات الربية . التي تشرق على الروح من عالم الأمر الأقدس .
فيسع التجلي الصمداني وسع ايمان واذعان وايقان تحقيقاً لمعنى الحديث
القدسي (ما وسعني أرضي ولا سمائي . ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن)
وقد قال ابن معاذ : يا جهول يا غفول لو سمعت لذة صرير قلمه حين اجراه
بذكر اسمك في اللوح لمتّ طرباً . وقال ابن عطاء : نفس المتنفس بالذلّ
والافتقار يخرق كل حجاب بينه وبين العرش . ومن الأدب استماع قولهعليه
الصلاة والسلام (أطلبوا المعروف من الرحماء من أمتي تعيشوا في أكنافهم
فالخلق كلهم عيال الله وان أحبّ خلقه اليه أحسنهم صنعاً الى عياله وان الخير
كثير وقليل فاعله) مع العمل فان السماع بلا عمل يفسد ولا يصلح ويزيد في
مآثم الضلال فبعد أن تكون على غير علم تكون على علم بحكم الخطيئة المحظورة

ومن الأدب ما أوصى به عبدالله بن الهيثم لولده حيث قال له . يا بنيّ لا تطلب الحوائج من غير أهلها ولا تطلب ما لست مستحقاً فانك ان فعلت ذلك كنت بالحرمان حقيقاً وبالردّ خليقاً . وما روته عائشة رضي الله عنها من أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فاستوصاه فقال عليه الصلاة والسلام لا تغضب فقال زدني فقال لا تغضب وكررها وما كان شيء أبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب وان الرجل كان ليكذب عنده الكذبة الواحدة فلا يزال يرى ذلك في وجهه حتى يعلم أنه قد أحدث لله توبة

اذا علمت ذلك وفقهت أن الأدب مع الله لا يتحقق الاّ بالأدب مع خلقه أمكنك أن تدرك الحكمة في بسطنا لهذه النقول الشريفة والآثار الكريمة وليست سوى نزوعنا الى ما يبعث في النفوس روح النهضة الصحيحة لتحقيق أمنية الدين الحنيف من أهله نحو امامهم وسلطانهم فيلتفون حول عرشه السامي المكين ويظهرون لجلالة سيدهم ومولاهم خالص الولاء والوفاء لما علموا من أن رضاء الله متوقف على رضائه والأدب مع الامام هو الأدب مع الله

ومن الأدب صلة رحم الانسانية والدين والولاء بمعنى أن الانسان المؤدب مع ربه لا يليق به أن يقطع أسباب الارتباط العام وحبال الاجتماع البشري بمدى غاياته النفسانيه . فان ذلك دليل على الجحود للحقوق والجمود والمروق . وقد ورد أن الرحم معلقة تناجي ربها : أي ربّ صل من وصلني واقطع من قطعني . فالصلة خير من القطيعة . والتمادي في العقوق اعتداء مرّ يجرّ الوبال والخبال على مرتكبه . ولا ينبغي للمكلف أن يدعي العبودية وملء فؤاده التمرّد والانانية الكاذبة . بل لا يصدق اذا ادّعى حبّ الله الذي

لا سبيل اليه الا بالتقوى والطاعة قال تعالى آمراً لنبيه صلى الله الله عليه وسلم (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم والله غفورٌ رحيمٌ)

أجل ان حب الله من أكمل أصول الدين والصلاح ولكن لا بدّ له من وسائل مزكية للنفس والسريرة وتلك الوسائل هي التحبب الى عباد الله واكتساب رضاء ولاة الأمور بعد الرسول وصحابته أجمعين . ولا وسيلة لهذا الرضوان العمومي سوى الولاء الصادق والوفاء المطابق وسلامة الصدور وطهارة الضمير وتقوى الله في عباده وعدم عصيانه تعالى خصوصاً في حقوق عباده الذين ولاّهم الأمور وأسداهم الخلافة والملك وجعلهم أئمة في الأرض يحكمون بما أنزل الله ويقيمون حدوده وهو بصير بهم وكفيل لهم وهو حسبهم ونعم الوكيل . والا فدعوى الحب باطلة وقضيتها عقيمة ليست قوية يبينها قوله :

تعصي الاله وأنت تظهر حبهُ ❊ هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ❊ ان المحبّ لمن يحبُّ مطيع

ومن الأدب مع الله الصبر على الشدائد وعدم الضجر في الأمور العصيبة والركون اليه تعالى في حلّ عقدتها وزوال شدتها فانه سبحانه رؤف رحيم وقويٌّ غالب ومع ذلك

اذا يسر الله الأمور تيسرت ❊ ولانت قواها واستقيد عسيرها
فكم طامع في حاجة لا ينالها ❊ وكم آيس منها أتاه بشيرها
وكم خائف صار المخوف ومقتر ❊ تحوّل والاحداث يحلو مريرها
وكم قد رأينا من تكدر عيشة ❊ وأخرى صفا بعد اكتدار غديرها

على أن الانسان لو لم يثق بربه ويخلص في دينه ويزكي سريرته بالتصون

من كل ما يخلّ بآداب اليقين الصالح مع الله فقد أوقع نفسه في مغاوم الآثام وتولته فواعل الآلام . وصارعته نوب الدهر الأليمة وناصبته العداء وقاذفته بنبالها المضيمة . أما لو وثق بربه واستعان به فقد فاز وبلغ ما يتمناه ووصل الى الراحة الحقيقية التي تمكنه من النظر في تقويم أحواله وتطبيق أسياره على السنن المحبوب لصاحب الملة المطهرة . فلا يدليه اليأس في هوات الانخذال والانحدار ولا يحمله القنوط على أن يموت وهو حيّ

(ليس من مات فاستراح بميت * انما الميت ميت الأحياء)

بل يكون مملوء القلب بالعزيمة الكاملة والصبر على المكاره ومجانبة قرناء السوء الذين يبعثون التألم في النفوس من غير ألم ويحرضون على الكفر والعناد ويحضون على ركوب غارب الشطط والفساد . ولا تجدي الحيلة المتحيل بها اذا حمّ أمر الله بما قدر . كما لا ينفع عتاب الدهر اذا تمكن القهر . كذلك لا تفيد التميمة . اذا ماتت العزيمة . ولا يشفي الدواء . اذا عضل الداء . بل تفسد الحكمة من غير حكيم ذي رحمة . فأحرى بالمرء أن ينطق عنه الحال بقول من قال

الى الله أشكو الأمر في الخلق كله * وليس الى المخلوق شيء من الأمر

اذا أنا لم أصبر على الدهر كلما * تكرهت منه طال عتبي على الدهر

ووسع صدري للأذى كثرة الأذى * وان كان أحياناً يضيق به صدري

وصيرني يأسي من الناس واثقاً * بحسن صنيع الله من حيث لا أدري

تعودت مس الضرّ حتى ألفته * وأسلمني حسن العزاء الى الصبر

ولقد ملئت صحف الاولين من السلف الصالح بمعزيات قلوب الصابرين في أبيات ملئت حكمة وأدباً لو أردنا بسطها لما وسعتها صحائف هذا الباب

الوجيز . وقد اشتهر من عظاتهم كثير كقولهم

إذا ضاق صدري بالأمور تفرجت * لعلمي بان الأمر ليس الى الخلق

ثم والرضاء عن الله في كل الحالات من ألزم الواجبات وأدعاها الى اكتساب رضائه تعالى الذي هو الغاية المقصودة من الاله المعبود وما أجمل قول بعضهم في هذا الموضوع

رضيت بالله إن يعطي شكرت وإن * يمنع قنعت وكان الصبر من عددي

ومن عجيب أمور هذا الباب أن الأدب مع الله اذا كمل في امرئ توفرت لديه مثيرات الرضاء عن ربه والحب الحقيقي الالهي وهذا الحب يكون غالباً مدعاة لفتح اغلاق الملكوت وسبباً في نوال العبد جزيل الآلاء ووافر المنح والعطاء . حتى أنه يكاشف باسرار الحق في الخلق ويطلعه الله على آيات قدرته الباهرة . ومعاني حكمته القاهرة . ويمكنه من الصولة والجولة في العوالم الروحانية فتصدر عنه خوارق العادات . وتتأصل فيه عوامل الضراعات والدعوات المجابات . والعبد في هذه الحالة يؤثر العزلة عن الناس والانفراد كما قال بعضهم متواجداً في معنى الأخذ عن الله والسماع عنه والاستمداد منه

سمعت الله في سري يقول * أنا في الملك وحدي لا أزول
وحيث الكل مني لا قبيح * وقبح القبيح من حيثي جميل

ومما قالوه في معنى الوحدة والعزلة والانفراد والخلوة والجلوة

أنست بوحدتي ورضيت نفسي * لنفسي من أخلائي جليسا
وعيبي شاغل عن عيب غيري * وحسبي خالقي وكفى أنيسا

ولولا خشية الملل لأطلنا في هذا الفصل وبسطنا ما لدينا من لوازم

الأدب في الحق ولكن حسبنا ما قدمناه اذا وعاه فؤاد القارئ وقدّره حق قدره . اذ ما علينا من النصيحة أبديناه لا نبتغي عليه أجراً

على المرء أن يسعى لما فيه نفعهُ * وليس عليه أن يساعدهُ الدهرُ
فان نال بالسعي المنى تمّ قصدهُ * وان خانهُ المقدور كان لهُ العذرُ

الفصل الثاني

﴿ في الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾

اعلم أن الأدب مع الرسول الأطهر صلى الله عليه وسلم هو بعينه الأدب مع مرسله القديم جلّ وعلا . بيد أن آداب الرسالة تستدعي شعوراً كريماً يلائم حال صاحبها . فان الرسل الكرام عليهم السلام لهم في أممهم عقائد شتى . فمنهم من جعلته أمته الهاً فكفرت به وبربه . ومنهم من افترى عليه رهطه الكذب على سبيل المدح والاطراء . ومنهم من عكف قومه على عبادة هيكل خلقوه له وادعوا أنه ليس من البشر الى آخر تلك العقائد بل العوائد الشاذة التي ينفر منها الأدب الحقيقي مع الرسول الكريم . ولا نقصد بذلك حطاً من مقام نبيّ منهم صلوات الله عليهم أجمعين . فانهم كلهم رسل الله ولا نفرق بين أحد منهم أبداً بوجه من الوجوه . فلندع الكلام الآن على ما تذرّع به بعض الأقوام من العقائد الشواذ ولنعرّج على مقصدنا الحقيقي من بيان الأدب مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فنقول

محمدٌ صلى الله عليه وسلم هو الرسول الالهي الذي بلغنا عن ربه رسالته بامانة وتوخّى المصلحة العامة ودعا الناس جميعاً الى اعتناق دعايته القويمة .

وهدايته الكريمة . فأجاب السعيد وشذّ الشقي فأعرض ونأى بجانبه عن الهدى الذي استحبّ العمى عليه . وحيث إن هذا الرسول الأمين الصادق الوعد بلغنا الرسالة بامانة وفطانة ورزانة وحسن عقل وأدب فينبغي أن نكون له كذلك مجيبين بامانة وروية وعقل وأدب . لا أننا نفتات على شريعته التي أوصى الله بها أنبياءه عليهم السلام . ومعنى الاجابة بالامانة هو أن نقوم بالشعائر المقدسة حق القيام ونقيم آداب دينه القويم وحدوده الشرعية حتى يستقرّ العدل في نفوس الناس وتسري الاريحية في جميعها

وهذا المعنى اذا قمنا به وقام بقلوبنا يحفظ لنا سبل الأخلاق من قتاد الفساد والحماقة والعلل والخلل فنتكمل بالكمال المحمدي الطاهر من غير تعب ولا جهاد . فالأدب معه عليه الصلاة والسلام هو التصديق الصحيح والاذعان التام بكل ما جاء به والعمل على قدر الطاقة البشرية (لا يكلف الله نفساً الاّ وسعها) وقد حكى أدبه وأخلاقه في القرآن الحكيم قوله (وانك لعلى خلق عظيم) وقوله (وما أنا من المتكلفين) فاستماع أقواله صلى الله عليه وسلم والاذعان بها والعمل بإرشده الحكيمة على قدر الامكان هو الأدب معه

وللأدب معه صلى الله عليه وسلم أحكام وشروط . منها أن الانسان اذا تلي عنه حديثاً من أحاديثه أو آية من القرآن العظيم يخشع قلبه ويتأدب فؤاده ويصمت لسانه وتتهذب حواسه . والأدب الذي من هذا القبيل لا يخرجنا عن موضوع الادب الجوهري في الاحكام والنظام العام اذ هذا من أركان الاتباع الكامل . لان الانسان اذا لم يطع وليّ أمره مثلاً وأمير المؤمنين فقد استخفّ به وحقره . وبهذا الاستخفاف والتحقير استخفّ وحقر من ولاّه وأمره جلّ وعلا . فضلاً عن قلة الادب مع الرسول صلى

الله عليه وسلم

قرأنا صحف تاريخ الاسلام والمسلمين فلم نجد فيه الاّ أن معاصري الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا معه أتبع من الظل لشخصه تبعية بادب واحترام وتفيءٍ لظلال رحمته العامة . ولم يروِ لنا راوٍ من رواة التاريخ أن مسلماً عاصر النبي صلى الله عليه وسلم وخرج عليه وثرثر في ملاء من أملاء المسلمين . بل كان الادب رائد قلوبهم وصاحب السلطان على نفوسهم ورداءهم الشريف الذي ارتدوه والتحفوا به شعاراً بين ظهراني الأمم جمعاء .

ولقد كان الذي يشعر بشذوذ في خلاله وآدابه لا يأوى الى جموع العرب بل ينآى خشية أن يهان أو يذل . لاعتقادهم أن الادب مع الرسول أدبٌ مع الله . والحياء من الاول صلى الله عليه وسلم حياءٌ وخشية من جلال الله عزّ وجلّ . حتى أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا سراة الناس وكبارهم حسباً ونسباً وشرفاً وعشيرة واثراء ومع ذلك كان خضوعهم وانصياعهم للرسول كمدرسة أدب وتخلق للأمة وأخلاق عامتها . فاذا جاء أحدٌ الى حضرة الرسول ووجد بين يديه أبا بكر الصديق مثلاً وهو خاشع وله من السمعة العالية والصيت الطائر ما يستصغر نفس الزائر في اعتبار السائر . أفلا يكون هذا الأدب الصحابي سبباً في تحلي كثير من عامة الناس وأواسطها بالادب الصحيح والحب الخالص .؟. وقس على أبي بكر غيره من الصحابة كعمر وعثمان وعليّ وغيرهم من الخلفاء الراشدين

ولو نظرنا في معنى الخلافة والاستخلاف تحقق جيداً أن الخليفة يمثل النبيّ صلى الله عليه وسلم بسائر حقوقه وآدابه وكمالاته وأحواله واخوانه وأمته وصولته وسلطته ومركزه . وفي هذا من السرّ في حياة الشرعة الناسخة

لسواها ما لا يخفى على بصير خبير . فان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يستخلف عنه أئمة المسلمين الا ليكونوا بدله في أمته قوّاماً عليها بالقسط والعدل لهم ماله وعليهم ما عليه ولو في أخص واجباته الرسالتية التي منها ارتقاء المنبر والقاء أسرار التنزيل بالموعظة الحسنة على الأمة وتطبيق حوادث العصر على آي القرآن الكريم . فالخلفاء نوّاب عن الحضرة المحمدية يزعون أحكام الدين على الناس بسلطة الرسالة الالهيه التي اختص الله بها النبي محمداً صلى الله عليه وسلم . فيجب على المسلمين أن يوقروهم ويعززوهم وينصروهم ويتأدبوا معهم ويكرموا سمعتهم ويقدسوا السرائر في عقيدتهم معهم لتتحكم عرى الارتباط المحمود والصلة لرحم النبوة الكريمة

أنظر في شأن المسلمين ابان خلافة أبي بكر رضي الله عنه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم فان الناس كانوا قد جزعوا جزعاً شديداً وكادوا يرجعون عن الاسلام لولا أن ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وألهم الصديق أن يرقى المنبر ويتلو آية (وما محمدٌ الاّ رسولٌ قد خلتْ من قبلهِ الرسلَ أفئن ماتَ أو قتل انقلبتم على أعقابكم الخ) فثاب الناس الى رشدهم وتذكروا خطأهم وكأنهم لم يقرؤا هذه الآية ولم تقرأ عليهم . وهذه فائدة كبرى من فوائد الخلافة التي هي ركن الدين الادعم وعماده المشيدة بيد العناية والتأييد كما سيتضح لك ذلك بعد

ولو لم تكن الخلافة من أوّليات الاركان الموصى بها من النبي صلى الله عليه وسلم لاندرس الاسلام بموته عليه الصلاة والسلام ولكن الله لارادته بقاء دينه العزيز وفق نبيه الى الاستخلاف الحقيقي تخلقاً بخلق ربه في جعله آدم خليفة في الارض يزع أحكام الحياة البشرية على نواميس الفطرة التي

طر الله الناس عليها

ولقد بلغ الأدب الصحابي مبلغ الحب والعشق له صلى الله عليه وسلم حتى تفاضل في اكتسابه الصحابة أجمعون وتنافسوا في مضماره وتسابقوا على بحسب العزائم في ميدانه في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد مماته . وما أجمل من أدب يستحيل حباً وصدقاً واخلاصاً . فان الادب الذي يترقى بصاحبه الى اكتساب عاطفة الحب والحنان والاشفاق لهو الادب الخليق بالذكرى والاعتبار . وقد ذكرني هذا حديثاً صحابياً في هذا المعنى ألمع اليه المحدثون في كتبهم الفخيمة . وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فضل أبا بكر على الصحابة أجمعين حاولوا معرفة السبب الذي به فضلهم رضوان الله عليهم . فلم يروه يزيد عنهم في خشوع أو خضوع أو أدب مع الله والرسول فشغلتهم نفوسهم بهذا الامر وتمالؤا في املائهم له وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن السبب الذي به فضلهم أبو بكر رضي الله عنه . فلم يسمعوا من فمه الشريف غير قوله عليه الصلاة والسلام (ما فضلكم أبو بكر لا بصوم ولا بصلاة ولا بحج ولا بزكاة وانما فضلكم بشيء وقر في صدره) يرمز الى استحالة الادب حباً خالصاً وعشقاً كاملاً . فأذعن الصحابة لقول النبي صلى الله عليه وسلم ولم يراجعوه احتراماً لمكانته العليا في نفوسهم واعتقاداً لصدقه الذي فطر عليه وانما اشتغلوا بالبحث والاستقراء حتى مات الرسول صلى الله عليه وسلم وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً لموته ولم ينسوا ذلك وقضى أبو بكر أيامه خليفة عليهم وهم مضمرون استطلاع ذلك الشيء الذي وقر في صدر الصديق وبه فضلهم الى أن مات وترك زوجته رضي الله عنها . فبادر اليها أحدهم وخطبها من ذويها فاجابوه ولما دخل عليها قال لها . اعلمي أيتها السيدة الكريمة أني

ما تزوجتك لحسب أو نسب أو مال وانما تزوجتك لتدُليني عن ماذا كان يفعل أبو بكر في بيته . فقالت له : كان يصلي كما تصلون ويصوم كما تصومون ويزكي كما تزكون ويحج كما تحجون ولم يزد عليكم شيئاً غير أنه كان في بعض أحيانه يجلس محتثياً مطرقاً برأسه كأنما يفكر في أمور غامضة ثم بعد اطراقه الطويل يتنفس الصعداء ويقول بزفرة (واشوقاه الى محمد) فتذكر الصحابي عاطفة الحب واستشرف على معنى الفضيلة الراسخة في نفس الصديق رضي الله عنه فانطلق لسانه قائلاً : بهذا فضلنا أبو بكر مكرراً ذلك حتى أعلم الصحابة بالحال ولكنهم لاعتقادهم أن عملاً كهذا يحتاج لفهم قواعد وأصول ربما كان النبي أسرّها لابي بكر وعلمه اياها لم يفكروا فيه . بيد أنهم تفانوا في حبه صلى الله عليه وسلم تفانياً أدناهم الى حضرة الصديق منهم وبعث فيهم شعور حكمة الادب مع الله والناس فقنعوا بشظف العيش وخشونة الحياة ولم يقلعوا عن عوائدهم البدوية مع غزير غنائمهم ووفرة أنفالهم رضي الله عنهم أجمعين

واذا علم القارئ أن الأدب مع الله تعالى لا ريب في وجوبه على العباد أجمعين لما له عزّ وجلّ من الحجة البالغة والبرهان الساطع على كمال اقتداره وعظمة سلطانه ورهبة جلاله فلا يعزب عنه أن يعلم أن الأدب مع الرسول كذلك واجب لان الآيات القرآنية تصرح بذلك وترشد اليه ارشاداً لا يحتمل التأوُّل ولا التخريج قال تعالى مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وسلم (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) فاذا كانت مبايعته صلى الله عليه وسلم هي مبايعة الله ومعاهدته هي معاهدة الله ومواثقته كذلك أفلا يكون الأدب معه أدباً مع الله ..؟.

ليس الأدب أخطر شأناً على النفس من المبايعة التي هي تسليم الأمر والنفس والمال ابتغاء الرضاء واتحاداً على الجهاد في سبيل الله فكيف لا يكون التأدب معه صلى الله عليه وسلم من أوجب الواجبات وأسماها وأكملها وأسلمها سبيلاً .؟.

هذا وكما أن الله استناب عنه النبي صلى الله عليه وسلم في عقد المبايعة مع عباده والتحالف على الجهاد في سبيله كذلك النبي استناب عنه الله في النصر على الاعداء والظفر بهم في الحرب . فكان صلى الله عليه وسلم اذا حارب رأى رؤس أعدائه تتطاير وجثثهم تترامى على الغبراء . ولما استعظم الأمر في نفسه سمع الوحي يناجيه بآية (وما رميتَ اذ رميتَ ولكن الله رمى) واذا أحب الجهاد وتشوقت نفسه الشريفة الى الاستظهار على أعداء دين ربه ووفق لذلك رأى من مدهشات الاعجاز ما يسجده لله شكراً فيسمع النداء من ربه عن لسان وحيه ناطقاً بآية (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) فانظر نتيجة الادب والوحدة واليقين والتسليم تعجب من عجائب أسرار الحب الخصيص بأهل العناية والاخلاص جعلنا الله من المعدودين في زمرتهم ووفقنا للعمل بما يقربنا من حظائرهم يوم الفزع الأكبر

ولا ريب في أن الطاعة التامة هي أدب وزيادة اذ لا يلزم من الأدب الطاعة كما يلزم الأدب في الطاعة . ومع ذلك قرر القرآن الكريم بان من أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله . ويندرج في معنى الرسول كل نائب عنه أو خليفة أو ولي أمر من أئمة المسلمين قال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) ولو أضفنا الى هذه العظات السماوية المقدسة أخلاقه صلى الله عليه وسلم من الضعة ودماثة الاخلاق الكريمة

وشهامة القلب والتبري من الحول والقوة والتوكل الحقيقي والزهادة الفائقة والاكتفاء بكفاف العيش مع القدرة على أسمى مظاهر النعيم والرفاهية لازداد بنا الاعجاب والاندهاش من هذا الكمال التام الذي يحمل الضمائر على التضافر في المصلحة الحقيقية ولو حملها ذلك ما أوجب فناءها ابتغاء مرضاة الله ورسوله الذي نحدثك أيها القارئ ببعض شيمه العالية وصفاته الكريمة السامية ونرجوك أن تعيها وتحرص على مراميها ومغازيها لعلك تفوز مع الفائزين ٠

وحسبك أن تفهم معنى ما اليه رمزنا بهذه الدلائل المتينة والاستنتاجات القوية وتعقل أن حقوق الخلافة هي بعينها حقوق النبوة لا تنقص عنها غير الخصائص الالهية التي تميز اسم الخليفة عن اسم النبي ٠ فلا جائز أن يقال إن النبي يجب الأدب معه والخليفة لا يجب الأدب معه لامتناع انفكاك ما ارتبطا به وورثه الخليفة عن نبيه ٠ كما لا جائز أن يقال بوجوب الأدب مع الله وامتناع وجوبه مع الرسول لامتناع انحلال ما ارتبطا به أيضاً في عهود التنزيل وعقود الرسالة الكريمة بل الواجب أن يقال ٠ ان الأدب مع الله ضروري ومع رسوله واجب مقدس ومع نائب الرسول وهو الخليفة وامام المسلمين كذلك ٠ لأن الله منح الرسول سلطة الوزع الالهي التي تمثل هيمنته تعالى وعظمة سلطانه المحترم ٠ والنبي صلى الله عليه وسلم كذلك خوّل لنائبه كل حقوقه التي كانت له على أمته من الطاعة والصدع بالامر واجتناب النهي فله كذلك ما للنبي من الأدب والاحترام

ولما كان الأدب مع النبي واسع الابواب ضافي الفصول كثير الدوالّ واضح المعنى والحكمة اكتفينا ببسط ما تقدم معتقدين أنه كاف

في بيان حاجة موضوع الكتاب من الأدب النبوي الذي هو المدعاة الكبرى والمثار الأعظم لنعمة الولاء العام لخليفة الاسلام . ولا غرابة في أن النفوس المتأدبة بأدب الدين المستكملة لكمالات الوفاء والشهامة يكفيها القليل من القول الدالّ على المعاني العظيمة . أما اذا تعرّضنا لتهذيب النفوس المتمرّدة فلا تكفينا المجلدات لبسط الوعيد الذي يلقاه من لم يتأدّب بدينه مع امامه ورسوله وربّه . فان الشرائع جمعاء قضت بان فقيد آداب الولاء المتمرد على الحقوق المعتدي على عقائد الأمم المفتري المغري بالسوء والفساد يجب أن يعذّب عذاباً أليماً ويلقى هواناً مضيماً . حتى أن القوانين الوضعية تتحد مع الشرائع الالهية في ذلك حيث حرّمت الافتئات على سلطة الوازع وقرّرت للمفتئات عقاباً صارماً تضطرب من ذكره النفوس وترتعد الفرائص وترتجف الافئدة وتلتحف بالوجفة الشديدة والقلق المريع . ولكن أبى الله في هذا العصر أن يسود هذا الدستور الكابح لجماح النفوس الشرّيرة الكاسر لسوراتها الحافظ لكيان الآداب العمرانية . كأن الناس في هذه الأيام لم يشعروا بأن كل فساد ترتب على سوء تربية الافراد يعم ضرره ويمتنع خيره . مع أنهم في ظروفهم الحاضرة أحوج من سواهم بكثير الى التربية الحقة الصحيحة وتعهد الاخلاق وتنقيتها من أعلاق الفساد والشذوذ توقياً لما يترتب على معمومية فسادها من تعذُّر الرجعة ولو بعد حين آه

فسد الزمان فليس يأمن ظلمه * أهل النهى وبنوه منه أظلم

نبذوا الوفاء مع الحياء وراءهم * فيكون حيث يكون هذا منهم

فلا أدري لماذا لم يحتفظ أبناء هذا العصر على آداب حياتهم وفضائل وجودهم .؟. وكيف هانت عليهم تضحية مجدهم وقضاء أعمارهم بين الرذائل

وعداوة الفضائل بالخروج على جلالة سلطانهم الانخم وامامهم الاكرم .؟.

اذا مرّ هذا السمر بين رذائل * فهل ثمّ عمر للفضائل آتي
فيا عجباً من غفلة في نباهة * وما هي الاّ سكرة الشبهات

الفصل الثالث

﴿ في الأدب مع الخليفة العام ﴾

قدّمنا أن موضوع هذا الكتاب هو الحثّ على الفضيلة من حيث هي فضيلة . وقد أبنا فيما قدمناه معنى الأدب من حيث هو . وشرحنا وجوب الأدب مع الله تعالى ومع الرسول صلى الله عليه وسلم . والآن نشرح في هذا الفصل آداب الولاء . الحقيقي وواجبات الاسترعاء . المرعي الحقوق في كل أمة تلقاء امامها وسلطانها ووليّ أمرها . غير متعرّضين الآن لامر الخلافة واستحقاقها اذ ذلك ليس في الواقع مقصودنا في وضع هذا الكتاب وان كنا سنأتي بنبذة تتعلق بذلك في الابواب والفصول الآتية

(فمن هو الخليفة والامام وما هي الخلافة والامامة .؟.)

الخليفة الامام هو العدل المسلم الرشيد الذي استحق الخلافة إما بنص من سالفه أو باجماع من عقلاء الأمة . فتى أحرز الشروط الستة المدونة في كتب الشريعة المطهرة (وسنأتي عليها بعد) كان هو الخليفة والامام وأصبح أمره حكماً شرعياً مقدّساً لايجوز التخلي عنه بايّ وجه من الوجوه خصوصاً اذا روعي في الامر صالح الامة الذي يدريه هو وحده أو بارشاد الثقاة الذين

انتقاهم لمشورته في مهام الامور

والخلافة والامامة لفظتان متباينتان في المبنى متحدتان في المعنى تشفان عن أركان أربعة لا تتحقق بدونهما . وتلك الاركان هي المستخلف (بكسر اللام) والمستخلف (بفتحها) والاستخلاف الذي هو الفعل الحاصل بينهما . والخلافة التي هي الصفة المكتسبة للخليفة . أما المستخلف بكسر اللام فهو النبي صلى الله عليه وسلم أو من في حكمه كالخلفاء عنه أو الاجماع الأُميّ . والمستخلف بفتحها فهو الذي ثبت له الاستخلاف بشروطه الشرعية ونودي باسمه خليفة وذكر الخطباء على المنابر اسمه باعتبار كونه اماماً عاماً لسائر أمم المسلمين فحكمه بعد ذلك حكم النبي صلى الله عليه وسلم في سائر أحواله وأطواره وآدابه والأدب معه والحقوق التي له والتي عليه

ومن أهم أركان الأدب مع الخليفة طاعته وعدم الخروج عليه لامر من الامور . اذ لم يبح الدين أن المسلمين يخرجون على امامهم وسلطانهم الا في أحوال مخصوصة بينها الشيخ اللقاني في جوهرة التوحيد حيث قال

وواجب نصب امام عدل * بالشرع فاعلم لا بحكم العقل

وليس ركناً يعتقد في الدين * فلا تزغ عن أمره المبين

الا بكفر فانبذنّ عهده * فالله يكفينا أذاه وحده

بغير هذا لا يباح صرفه * وليس يعزل ان أزيل وصفه

فيعلم من هذا أن الامام واجب الطاعة ولا يخرج عليه مسلم الا اذا رأى منه الكفر فلا بأس بنبذ عهده . أما اذا كان مقيماً على الاسلام ولو كان فاسقاً لا يجوز الخروج عليه . لان الخروج عليه ليس بسهل النتيجة لما يترتب عليه من اضطراب أحوال الامة واختلاف الرأي فيها خصوصاً اذا أعقب

الخروج عزله فتقع البلاد والعباد في شقاء عظيم ووبال مضيم ربما أفضيا الى دخول الاعداء واستضعافهم للمسلمين • فالمتسبب في ذلك جان على دينه وعرضه وأمته ونفسه • حتي أن الامام اذا كان ظالماً غير عادل فدينه الاسلام وهو أول دين يزكي الاخلاق ويشذب النفوس ويلين القلوب ويعطفها يوماما الى العدل والرحمة بعباد الله فهو أولى وأحق وأوجب رعاية وولاية من الكافر العادل • فلا تنظر لفتوى (هلاكو خان) التي حدثك بها التاريخ فانها بنت فرية مختلقة ينكرها الدين والأدب كما سيتضح لك ذلك بعد

على هذا بنى الأوّلون العقلاء أمورهم وثبتوا قلوبهم واسترعوا أئمتهم وخلفاءهم ورضخوا لسلاطينهم وولاتهم • ولم يرد في كتب الدين أو التاريخ شرط يعين الصبغة للامام والسلالة بمعنى أن يكون قرشياً مثلاً • فان الخلافة حق الله في عباده كافة لا في جنس دون جنس أو عشيرة دون أخرى

وحيث الامر كما تقدم فطاعة الخليفة ألزم رعاية لمصلحة الامة والدين •

والخروج عليه بلا كفر منه كفرٌ من الخارج لافتئاته على الشريعة المطهرة واغرائه بأمن المسلمين وراحتهم واحداثه في دين الله ما هو برآء منه ولأن الخروج ضرب من ضروب الانكار للمعلوم من الدين بالضرورة وجاحد المعلوم بالضروره كافرٌ بالاجماع تجب مقاتلته واستئصال شأفته وفتنته

على أن الادب مع الخليفة أيّاً كان لا يكلف النفوس الطيبة شيئاً لان الأدب غريزة من غرائز الاخيار • وان نافر فطرة الاشرار • اذ لا يعقل من عاقل أنه يرى الامة باسرها مجمعة على أن جلالة مولانا أمير المؤمنين الخليفة العام السلطان عبد الحميد هو الامام الاسلامي ثم تحدثه نفسه بالخروج والشطط والتفريق بين المؤمنين

أجل ان الافتتان ليس بعيداً عن النفوس الشريرة والوجوه القليلة الأدب والحياء ولكن نحن الآن نخاطب أهل الحجى الذين يعقلون ما نقول ويعون ما نرمي اليه . أما أولئك الزعانف فقد طبع الله على قلوبهم وصرفهم عن الهدى . فباؤا بغضب منه سرمداً . ولا يليق بنا أن نلتفت الى ترثرتهم وبهتانهم وهذيانهم بل يجب أن نقاومهم ونحرّض عليهم أهل العزائم ونغري بهم كل ذي شعور صحيح غير معتل البال مدخولة عليه عن دخيل فرّق جمعنا وشتت شملنا . ولو تحققوا من سبب ذلك لوقفوا على سره . لأن خير المسلمين في الوفاق والوئام . لا في الثرثرة والانقسام . فان أعظم خطر على حياة الجامعة الحقيقية هو التفرق والدعوة اليه . خصوصاً من زعانف لا وفاء عندهم لان أعداءنا حينما يرون زعنفاً منهم يثرثر ويتشدق بالاصلاح وهو بريء منه يهوّلون ويرجفون . ويزعمون أن ذلك الثرثار من ذوي المقامات الكبار وهو في الواقع دعيٌّ فاجرٌ فتنخدع ضمائر البسطاء وربما غلب الشقاء على بعضهم فاتبعوا خطوات الشيطان الرجيم الذي يوسوس في صدورهم ويحملهم على العقوق

هذا وقد قرّر واضعو الشرائع النظامية أن سلطان الامة ومليكها هو الروح العامل بالجوارح فاذا اعتدى عليه معتد اضطرب الجسم جميعه وتمكنت منه أمراض تفتقر الى علاج كبير . فالأُمة مكلفة اذاً بالمحافظة على روح حياتها العمرانية أكثر من محافظتها على أرواح الافراد الجزئية . وقد قدّروا عقاباً صارماً للخارجين المارقين الذين يخرجون على تلك الروح المستجنة بأسرار وجودها في مستودع الحقوق العامة المتبادلة . وحياة الأُمم بحياة عرش الوزع الأعلى فيها والسلطنة لا قوام لها الاّ بالسلطان الذي هو

العامل الممنوح القدرة والرهبة والجلال . وطبيعة النظام تقتضي الحياء وعدم التحرش بالسلطة والافتيات عليها . والفرد الجامد الذي لا حياء عنده يعتبر من الأدواء المعدية التي يجب استئصال شأفتها توقياً لحياة الأمة . بل وجوده كالطاعون والوباء وكل أمة لم تطهر أملاء حياتها وعمرانها من مثل هؤلاء الجامدين الذين لا حياء عندهم ولا احترام لشريعة من الشرائع أو لسلطة الوازع فهي معرّضة لسوء السمعة وفساد التربية وعدم النهوض للحفيظة والدفاع عن الحقوق المتبادلة بينها وبين سواها من الأمم العاملة على حياتها وتقديس سمعتها . ولا دواء من هذه الأدواء غير ماقرّره الحكماء المقننون للقوانين الحياتية . وهو بسط شريعة الأدب الشعبي القائم على كلّ نفس من نفوس الأفراد بما كسبت . والأدب الشعبي هو الوسيلة العظمى لاستبقاء مجد الشعب واجتلاب الفضائل وترسيخها في النفوس حتى تصير ملكة كاملة

وينحصر الأدب الشعبي في شعور الافراد بسلطة الوازع عليهم وهيمنته على تصرّفاتهم العمومية والشخصية . وشعور الوازع بان له في نفوس رعيته مكانة احترام تؤهلهم لتلقي أسباب نعمه ورحمته بهم واشفاقه عليهم وعدم العسف فيهم والجور على حقوقهم . وهذان الشعوران الملتقيان في سبيل واحد هو الارتباط الحقيقي يتبادلان بين كل كبير وصغير في الشعب . فيعرف الصغير واجباته نحو الكبير في قومه ويتعلم من أحوال آبائه الذين احتضنوه وربّوه ما يجب عليه من الأدب والتوقير والاحترام لمن هو أكبر منه سناً وأخطر شأناً وأسمى علماً وأدباً وخلقاً . ويعرف الكبير كذلك آدابه وما هو مكلف به من الحرص على عواطف الصغير فلا يخاشنه أو ينفره منه أو يشتد معه ويغلظ في معاملته ويرهبه دائماً بالقسوة والفظاظة . فان هذه

الاخلاق وحشية لا تليق بالانسان المتعلم الذي هو بمثابة مدرسة علمية لمن هو أقل منه علماً وفضلاً وسناً واختباراً . واذا تبودل هذا الأدب الشعبي بين أفراد الشعب الواحد فبشرهم بالفوز الدائم والوقاية السرمدية

هذا من جهة الحالة المدنية المقررة في الشرائع الوضعية . وربما توهم مرجف مغرور أننا لا نستند في كتابنا هذا على أقوال رجال الحضارة وفلاسفة العمران العصري . لجئنا بمضامين أقوالهم في الآداب الشعبية هنا ليتعلم الفاسدون أن كل بني البشر مجمعون على أن كل مارقٍ من اجماع قومه لا يعول عليه ولا يصح الاختلاط به أو معاملته بل يجب الاغضاء عنه بالمرة حتى يتأدب ويؤوب الى صوابه ورشده وأدب الأمة . فليعتبر الفرقة المتشاكسون قاتلهم الله أنى يوجدون

ولما كان موضوعنا هو الأدب مع الخليفة الذي هو الملك والسلطان العام رأينا أن نثبت للمطالع فظاعة جريمة الخروج وعدم التحسب في الكلام ضد الملك بالاموال والافعال الجارحة للسمعة والمحرضة على الثورة والفساد بين الناس بما هو مدون في أصول شرائع العالم ونواميسه الوضعية حتى يتبين أننا نقصد الاصلاح العمومي للامة في شكل رعاية لآدابها مع مليكها وسلطانها . فاليك ترجمة ما قاله الفيلسوف مونتسكيو الشهير مؤلف كتاب (أصول الشرائع والنواميس) في هذا الباب تحت الفصل الثاني عشر والثالث عشر من الكتاب الثاني عشر في الشرائع التي تحدث عنها الحرية السياسية من حيث ارتباطها بشؤن الاهالي قال :

﴿ في التحسب في الكلام ﴾

انه لا شيء يصير ارتكاب الجريمة ضد الملك فعلاً صادراً عن سبق قصد وتعمد أكثر من عدم التحسب في الكلام فانه من المواضيع القابلة التأويل . انما يوجد فرق بين عدم التحسب في القول وبين الخيانة فيه يكاد أن لا يميز . لذلك فالشريعة لا تجيز جعل الكلام أساساً يترتب عليه الحكم على قائله بالاعدام ان لم تعين الالفاظ التي تستلزم توقيع العقوبة على قائلها .

أما الالفاظ فلا ينشأ عنها جرم الجريمة اذ أن معانيها تلبث راسخة في التصوُّر ولا تفيد غالباً معنى قائماً بذاته . وانما يختلف هذا المعنى بحسب رنة الصوت واللهجة . وقد يتأتى غالباً بان الانسان اذا كرّر ذات الالفاظ فانها لا تفيد ذات المعنى لان المعنى ينحصر فيما يكون للالفاظ من الارتباط بمواضيع أخرى . ثم ان السكوت في بعض الاحيان يفيد مالا تفيده الخطب المطوّلة ومن ثم فلا شيء يقبل الالتباس والاشتباه مثل الكلام فكيف يجوز اذاً أن يستنتج منه ارتكاب جريمة ضد الملك ؟. — ففي كل جهة سرت فيها هذه الشريعة فقدت منها الحرية واندثر أثرها

ان المنشور الذي أصدرته المرحومة قيصرة الروس ضد عائلة — « اوجوروجي » قد تضمن الحكم باعدام أحد أمراء هذه العائلة لانه تفوّه بكلام هدد به شخص الملكة وباعدام أمير آخر لانه ندّد في بعض الانظمة التي وضعتها لمملكتها ولانه أهان شخصها بالفاظ مخلة بالأدب

ولست أقصد بما تقدم التشديد في الغيظ الذي يتولد عند أمراء

البلاد ضد من يقصدون هتك حرمتهم ومس كرامتهم . وانما أعترف بأنه قد يمكن تعديل الاستبداد بقصاص المذنبين بعقوبة تأديبية لان ذلك أوسع من اتهامهم بارتكاب جريمة ضد الملك لما في هذا الاتهام من جسامة الخوف حتى على المبرئين أيضاً

ان الأقوال ليست مرتبطة دائماً بالأفعال كما يتضح ذلك لكل ناقد بصير . فالتهمة الباطلة على أفعال ظاهرة لا يصحب تحقيقها والأقوال [illegible] بالعمل فانها تأخذ قوة ذلك العمل . مثال ذلك — ان الرجل الذي يأتي الى محل عمومي ليحض فيه الناس على الثورة فانه يعد مرتكباً لجريمة ضد الملك لما أن أقواله مقرونة بفعل ومشتركة به . فتوقيع العقوبة في هذه الحالة لا يكون على الاقوال وانما على فعل يستخدم الاقوال لاتمامه . فالأقوال لا تعدّ جناية الاّ متى جهزت فعل الجناية أو اقترنت أو اشتركت به . وقد يختل النظام لو وصفت الاقوال بوصف جناية بدلاً عن وصفها بدلائل على الجناية .

ان الأمبراطورة « تيودس » و « اركاديوس » و « هونريوس » قد كتبوا الى « روفين » قائد الحرس الملوكي بما يأتي

« اذا فاه أحد بما لا يليق ضد ذاتنا أو ضد حكومتنا فلا نريد أن »
« نعاقبه على ذلك فان كان كلامه عن طيش يلزم الازدراء به وان كان عن »
« جنون فيجب أن يرثى لحاله وان كان من قبيل السفه فيسامح وبناء عليه »
« يجب عليك أن تفيدنا عن كل ما يحصل ويحدث من هذا القبيل ليتيسر »
« لنا الحكم على الاقوال بعد معرفة قائليها والنظر فيما اذا كان يلزم محاكمتهم »
« او تركهم .... »

﴿ في الكتابات ﴾

ان الكتابات قد تحتوي على أشياء يتوفر فيها الثبوت أكثر من الاقوال. لكن اذا لم تكن مجهزة لارتكاب جريمة ضد الملك فلا تؤخذ أساساً لموضوع هذه الجريمة .

ان « أغسطوس » و « تيبير » قد وضعا عقوبة على ماتحتويه المحررات « فاغسطوس » قرّر العقوبة على بعض الكتابات التي تشف عن التنديد بالنبلاء من الرجال والنساء . و « تيبير » قد قرر العقوبة على الكتابات التي ظن أنها تعنيه . فنشأ عن ذلك ضرر جسيم بحرية الرومانيين فاتهامه « كريموسيوس كرديوس » انما كان لانه ذكر في تاريخه على أن « كاسيوس » آخر خلف للرومانيين .

أن كتابات الهجو والقذف تكاد أن لا تعرف في الحكومات المطلقة لما أن الخمول من جهة والجهل من أخرى يسطيان على العقول فيعدمان منها الارادة أما في الحكومة الديمقراطية فلا حرج عليها بالنظر لذات الاسباب التي ذكرت عن الحكومة المطلقة .

ان كتابات الهجو والقذف لما كان القصد منها التنديد باصحاب المناصب السامية فان الشعب يرتاح اليها في الحكومة الديمقراطية لانها تحرك فيه حاسات الخبث والمكر . أما في الملكيات المطلقة فانها ممنوعة واذا حصلت فيعتبر فعلها أنه مخالفة وليس بجنحة . وهي تسلي الافكار وتبسط الصدور وتشغل العامة عن التطلع الى الوظائف وتجعل الشعب أن يصبر على بلواه ويضحك على ما يعانيه .

ان الحكومة الارستقراطية تكثر فيها هذه الكتابات لما أن رجال حكومتها يكونون كأصاغر الولاة ليس عندهم من عزة النفس ما يحملهم على الازدراء بمثل هذه الاهانات . أما في الحكومة الملكية المقيدة فاذا صوب الهجو سهمه ضد الملك فلا يمسه بالنسبة لعلو مقامه انما اذا أصاب أحد أعيان الحكومة الارستقراطية فيصيبه ولا يخطئه ولذلك فلجنة (الديسمفير) التي كانت تؤلف حكومة ارستقراطية كانت تعاقب بالاعدام أصحاب تلك الكتابات (اه)

ومن الذي ذكرناه يعلم الخبير أن قوانين الأمم تحظر فساد الرأي والشطط في الأقوال والأفعال خصوصاً مع الملوك والخلفاء والسلاطين . وقررت عقاباً صارماً لكل من لم يحتسب في كلامه وفعله كما هو واضح مما نقلناه عن أصول النواميس والشرائع واختلفت في جعل العقاب بالاعدام أو اعتبار الجريمة جنحة لا جناية . وهذا اذا كان الشطط في الكلام غير متعد الشتم أو القذف أما اذا كان الشذوذ يتضمن تحريضاً على ثورة أو تهييجاً لشق عصا الطاعة فلا خلاف في عقاب الاعدام . والشريعة المحمدية توخت في ذلك أسلم السبل وأنجاها من الخطل والخبل حيث قررت وجوب اعدام أو نفي أوصاب من اعتدى على حقوق الولاء وحض الناس على العداء وقاوم راحة المسلمين وناصبهم بالبلاء والشقاء العظيم . وما مثل جلالة مولانا أمير المؤمنين السلطان الأعظم (عبد الحميد خان) الاكرم مع الفارين الامثل أب رحيم كريم تجلى بين أبنائه بمجالي الرحمة والكرم فغرّهم ذلك منه نفر جواعليه لظنهم الاستزادة بالخروج والاستفادة من هذا التضايل الذي تصدوا به ولم يقفوا عند حد فيه . فلما رأى جلالته أن الحلم اذا لم تكن له بوادر تحمي

صفوه من التكدير فلا خير فيه أرهب الفرقة بصرامة العقاب لو لم يعودوا الى صوابهم ويلتزموا حدود آدابهم مع مليكهم وسلطانهم • ولم يبد الشدة التي أبداها الا رعاية لمصلحة الامة • والا فجلالته بعيد عن أن تناله ثرثرة الفاسدين الداعين الى هجر الوفاء والفحش في القذع للولاء • فكأن حاله ينادي القوم بلسان الخبير المنطبق على واقعة الحال حيث قال

تخذتكم درعاً حصيناً لتدفعوا * سهام العدا عني فكنتم نصالها
وقد كنت أرجو منكم خير ناصر * على حين خذلان اليمين شمالها
فان أنتم لم تحفظوا لمودتي * ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها
قفوا وقفة المعذور عني بمعزل * وخلوا نبالي للعدا ونبالها

ومن الأدب الصحيح أن يعادي الشعب من يعادي مليكه وسلطانه لضرورة كون الشعب صديق صاحب الشأن فيه وحاميه وكافيه • وللصداقة أحكام • هي أن يحزن الصديق لحزن صديقه ويسر لسروره

وصفوة القول في هذا الباب أن الأدب الحقيقي الذي هو البرهان الأول على عبودة الانسان لربه وحسن تبعيته لنبيه صلى الله عليه وسلم وولائه لامامه الذي هو صاحب السلطة الشرعية عليه يجب أن يكون الشعار الخالص من كل ما ينافي الاخلاص • وقد أقمنا الحجة على كل مكلف بأنه لا يعتبر انساناً تابعاً لدين مقدس محترم الا اذا كان مستظهراً على الأطوار الخبيثة بالشهامة والاقدام والمحافظة على آداب الدين والولاء واحترام الوازع الأكبر ونوابه الكرام • وهذا الباب الأول يرتبط كل الارتباط بحالتنا العمومية مع امامنا وخليفتنا الحاضر ألا وهو جلالة السلطان (عبدالحميد خان) أيده الله بروح من عنده • فينبغي أن تكون فصوله مدرسة لاخلاقنا وأفعالنا

وصفاتنا نتعلم منه كيف نكون مع الله ورسوله ونائبهما علينا . ومن أبعده الشيطان عن درك الحقيقة في ذلك فهو شر منبوذ من جامعة الدين والولاء مبغوض من الله والناس . وليس في الأمر مايدعو الى تفصيل آثام وسيئات المفترين على مقام الخلافة لأن الناس جميعاً علموها وظهرت لهم أسرارها واستنارت بصائرهم وعلموا أن كل ثرثار لا حياة له بين الاحياء الا كحياة الفراش الذي يرمي بنفسه على النار ويسكن منارها

والذي يطالع هذا الباب بامعان يقف منه على سر البيعة وآدابها بل لو أدرك ما نرمز اليه من أحوال الصحابة رضوان الله عليهم لتعلم كيف يحذف من ضميره أخلاط السوء والتقذع ويتحد مع المخلصين على الالتفاف حول العرش الحميدي المكين . خصوصاً وأن تاريخ آل عثمان الأطهار لو أردنا أن نضاهي بينه وبين تاريخ العرب وخلفائهم الراشدين لامتاز تاريخ آل عثمان باسمى أسباب الامتياز وأشرفها .

لم نسمع في تاريخهم عن اراقة دماء المسلمين لغرض الحصول على منصب أو مركز امامة عامة أو سلطنة خاصة بل كانت غزواتهم رضي الله عنهم لا تتعدى أعداء الاسلام الطامعين في بلاده وأهله . أما تاريخ العرب فلا نكاد نقرأ صحيفة واحدة منه الا ونرى الف غزوة اسلامية بين طائفتين مسلمتين وزعيمين مسلمين لاجل التفوق والعلو واستدراك المنصب السامي منصب الخلافة العامة . ولولا أن الصحابة رضوان الله عليهم مجتهدون في أفعالهم لا يليق بهم التشاجر لغرض نفساني أو ابتغاء علو في الارض لما فهم القاصرون من تاريخهم الا أنهم قوم من الهمجية بمكان عظيم . ولكن وجود مثل سيدنا أبي بكر الصديق وهو أفضل المؤمنين وعمر الفاروق وهو

أعدل امام في الامة وعثمان ابن عفان وهو أسلم الصحابة عقبى وعليّ كرّم الله وجهه وهو سيد النجدتين وامام الطائفتين وباب مدينة العلم يرفع الوصمة ويدفع التهمة

فهؤلاء بلا ريب هم أركان الاسلام الدعيمة وعماد مجده الفخيم رضوان الله عليهم أجمعين . ومزاياهم أشهر من أن تذكر وقد اتخذها الغربيون دستوراً لاعمالهم العمرانية ونظاماتهم الدستورية وقدّسوا سمعتهم وقدّروهم في الهمة والاقدام وشهامة القلب وعزة النفس وطهارة الاعراق ونزاهة الاعلاق ومكارم الاخلاق وحسن اليقين في الدين وسلامة الصدور من دواعي التغرير والغرور حق قدرهم . فبهم حفظ للعرب مجدهم وعلا شأنهم وزالت وصمة العار الذي لحق بتفرّقهم وتمزّقهم كل ممزّق في كل صقع وناد . وجهة وقبيلة وعشيرة . على أن هؤلاء مهما علت سمعتهم وطار صيتهم وقدّس التاريخ بحمد الصحابة منهم فما سمعنا ولا رأينا ما نسمعه ونراه اليوم عن آل عثمان الكرام من احترام الدين والخشوع والخشية لله . وان آل عثمان في الواقع أول من علموا الأمم كيف تحترم القرآن الكريم وتحفظه من عوادي العدوان . بل لو وجدوا كلمة من القرآن في ورقة ملقاة في بيت أو سبيل ربما حملتهم هذه اللقيا على اثارة حرب عوان بينهم وبين أعداء المصحف الشريف . وبالجملة فغيرتهم الشريفة على الدين لا تشاكه أو تشابه حيث انفردوا بذلك

هذا والدولة العثمانية باجماع المؤرخين أعظم دولة جمعت بين سياسة الملك والدين ودامت خالدة وأثبت لها التاريخ العمراني أسمى المناقب وأشرفها وادعاها الى الترضي عن آل عثمان المعظمين . ولو كان هذا الباب محل بسط

مآثرهم القراء لسردناها بكل توسع ولكن ذلك لا يفوتنا في محله من هذا الكتاب ان شاء الله

ونختم هذا الفصل بان الآداب الشرعية تحفظ للمؤدّب بها ذكراً حسناً وسمعة صالحة وسيرة طيبة طاهرة . ومهما يكن من الأمر فان الدولة العثمانية هي الدولة الاسلامية الوحيدة التي أصبح لها الحق الأوّل في الخلافة والامامة . وقد قرر علماء الدين بان السلطان الاسلامي لا ينفك عن الخلافة ولا تتعدّد محالّ الامامة الاّ اذا تعذّر وصول دعوة الخليفة الأعظم الى سائر الاقطار الاسلامية أما اذا لم يتعذر ذلك فتوحيد الخلافة واجب مقدس شرعيٌ في الدين والأدب . ولا أخال عاقلاً يحكم بتعذر الصلات بين الأمم الاسلامية في هذا العصر بل هي متصلة واتصالها أضحى أمكن ارتباطاً من ذي قبل أي في عهد الخلفاء الأوّلين الذين كانت الخلافة في عصورهم متوحدة المرجع والمحل

وقد قدمنا ما تجب مراعاته على كل مسلم ومسلمة من أن الأدب مع ولاة الأمور أدبٌ مع الله ورسوله باجماع أهل الرأي في الدين والشريعة ولا جائز أن نحكم بان جلالة مولانا الخليفة الاكرم السلطان (عبدالحميد) ليس اماماً عاماً وخليفة شرعياً لما علمت من وجوب الاعتراف بالامامة والخلافة في آل عثمان الطاهرين وانفرادهم بها في هذا العصر الحميدي المنير . وما دام الأدب رائد قلوب الافراد فبشرهم بالفوز والنجاح العظيم والله سبحانه وتعالى على ما نقول وكيل وشهيد

الباب الثاني

﴿ في الحقوق العامة المتبادلة بين الامام والأمة ﴾

(وفيه خمسة فصول)

« الأول في حقوق الخليفة الشخصية . الثاني في حقوقه العمومية »
{ الثالث في حقوق الأفراد . الرابع في حقوق الامة العامة }
(الخامس في التوفيق بين الحقوق وتوحيدها)

الفصل الأول

﴿ في حقوق الخليفة الشخصية ﴾

الخليفة كما قدمنا فرد من الأمة توفرت فيه الصفات المؤهلة له لان يكون وازع الأمة وامامها . وانسان كامل ترجع اليه آداب الشعب والافراد لما أحرزه من الفضل والسبق في الخلق الكريم وسعة العقل وحسن التدبير وتمام التبصر وسلامة الفراسة . وبهذه المميزات الفاضلة استحق الحقوق الواجبة لانفس الخلفاء الراشدين . وهي الاحترام لشخصه الكريم وتمثيل آيات امتيازه وأسباب فضله التي رقت به الى عرش الامامة الأقدس . واحترام الخليفة حقٌ من حقوقه الشخصية وواجب من واجبات الامة العمومية يبعث في النفوس روح الادب ويحضها على صلة الوزع الحقيقي فيما بينها . والتوقير وهو ثاني الحقوق ومن أوجبها على الامة للامام . فان الخليفة اذا لم يوقر ويحترم ساءت أخلاق القوم وفسدت عقائدهم وانثلمت آدابهم .

خصوصاً وأن الخليفة بحقوقه يمثل كبير القوم بحقوقه الواجبة له على صغارهم . فلو لم يوقر كبير القوم من صغارهم فقد فسدت الأخلاق وانقسمت العشيرة وساءت رجعة القوم

وفي هذا المقام يجمل بنا أن نذكر ما قاله العلامة ابن طباطبا في كتابه (الفخري في الآداب السلطانية) مختصاً بهذا الباب أعني في الحقوق التي للملك على رعاياه حيث قال :

ان للملك على رعيته حقوقاً وان لهم عليه حقوقاً . فاما الحقوق التي تجب للملك على رعيته فنها الطاعة وهي الاصل الذي ينتظم به صلاح أمور الجمهور ويتمكن به الملك من الانصاف للضعيف من القوي والقسمة بالحق . ومما جاء في التنزيل من الحث على ذلك الآية المشهورة في هذا المعنى وهي قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) ومن أمثالهم (لا إمرة لمن لا يطاع) ولم ينقل في تاريخ ولا تضمنت سيرة من السير أن دولة رزقت من طاعة جندها ورعاياها مارزقته هذه الدولة القاهرة المتوالية فان طاعة جندها ورعاياها لها طاعة لم ترزقها دولة من الدول . فأما الدولة الكسروية فانها على عظمتها وفخامتها لم تبلغ ذلك . وقد كان النعمان بن المنذر ملك الحيرة نائباً لكسرى على العرب وبين الحيرة والمدائن التي كانت محل سرير ملك الاكاسرة فراسخ معدودة . والنعمان في كل أيامه قد عصى على كسرى واذا حضر مجلسه تبسط وتجرأ على مجاوبته وكان متى أراد خلع طاعته دخل البرية فأمن شره . وأما الدول الاسلامية فلا نسبة لها الى هذه الدولة حتى تذكر معها . فأما خلافة الاربعة الأول وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم وعلي بن أبي طالب عليه

السلام فانها كانت أشبه بالرتب الدينية من الرتب الدنيوية في جميع الاشياء . كان أحدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه من ليف ويمشي في الاسواق كبعض الرعية واذا كلم أدنى الرعية أسمعه أغلظ من كلامه . وكانوا يعدون هذا من الدين الذي بعث به النبيّ صلوات الله عليه وسلامه

قيل ان عمر بن الخطاب جاءته برُودٌ من اليمن ففرّقها على المسلمين فحصل نصيب كل رجل من المسلمين بردٌ واحدٌ . ثم حصل نصيب عمر كنصيب واحد من المسلمين . قيل ففصله عمر ثم لبسه وصعد المنبر فأمر الناس بالجهاد فقام اليه رجل من المسلمين وقال . لا سمعاً ولا طاعة . قال لِمَ ذلك .؟. قال لانك استأثرتَ علينا . قال عمر بأيّ شيء استأثرتُ .؟. قال ان الأبراد اليمنية لما فرقتها حصل لكل واحد من المسلمين بردٌ منها وكذلك حصل لك . والبرد الواحد لا يكفيك ثوباً ونراك قد فصلته قميصاً تاماً وأنت رجل طويل . فلو لم تكن قد أخذت أكثر منه لما جاءك منه قميص . فالتفت عمر الى ابنه عبد الله وقال . يا عبد الله أجبه عن كلامه . فقام عبدالله ابن عمر وقال . ان أمير المؤمنين عمر لما أراد تفصيل برده لم يكفه فناولته من بردي ما تممه به . فقال الرجل . أما الآن فالسمع والطاعة (هكذا نقل ابن طباطبا في الفخري) وهذه السير ليست من طروز ملوك الدنيا وهي بالنبوّات والأمور الأُخروية أشبه

وأما خلافة بني أمية فكانت قد عظمت وتفخم أمرها وعرُضت مملكتها ولكن طاعتهم لم تكن كطاعة هؤلاء . كان بنوا أمية في الشام وكان بنوا هاشم بالمدينة لا يلتفتون اليهم واذا دخل الرجل الهاشمي على الخليفة

من بني أمية أسمعه غليظ الكلام وقال له كل قول صعب . وأما الدولة العباسية فلم تبلغ طاعة الناس لها ما بلغت هذه الدولة مع أن مدتها طالت حتى تجاوزت خمس مائة سنة ومملكتها عرضت حتى أن بعضهم جبى معظم الدنيا . وسنقع الاشارة الى ذلك عند الكلام على دولة بني العباس وحاصل الدنيا في أيام الرشيد في قصبة جامعة تشتمل عليها وكتب التاريخ تدل على ذلك فأما أوائلهم فجبوا شطراً صالحاً من الدنيا وقويت شوكتهم كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم والمعتضد والمتوكل ومع ذلك فلم تكن دولتهم تخلو من ضعف ووهن من عدة جهات . منها امتناع الروم عليهم وقيام الحرب بينهم وبين ملوكها النصارى في كل سنة على ساق ومع ذلك فكانت بدايتها تستصعب عليهم وملوكها لا يزالون على الامتناع منهم . وقد كان من أمر المعتصم (عموريه) ما بلغك . ولعل طرفاً منه يبلغك في هذا الكتاب عند الكلام عن الدولة العباسية . ومن أسباب الوهن الواقع في دولتهم خروج الخوارج في كل وقت

فأما المنصور فلم يشرب ريقاً حلواً . من ذلك أن خرج عليه النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام بالحجاز فجرت بينه وبينه حروب أفضت الى ارسال عيسى بن موسى بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس الى الحجاز لمحاربة النفس الزكية فقتله بموضع قريب من المدينة يقال له (أحجار الزيت) ولذلك سمي النفس الزكية قتيل أحجار الزيت . وخرج عليه أخو النفس الزكية وهو ابراهيم بن عبد الله بالبصرة فقلق المنصور لذلك غاية القلق وقام وقعد حتى توجه اليه عيسى بن موسى فقتله بقرية قريبة من الكوفة يقال لها (باخمري) فهو يعرف بقتيل باخمري

رضي الله عنه . ومن هاهنا حقد المنصور على العلويين وفعل بهم تلك الأفاعيل . ولعل طرفاً منها يبلغك في هذا الكتاب اذا انتهيت من الكلام على الدولة العباسية . وكذلك أمر الخوارج مع الخلفاء خليفة خليفة حتى كان الرعية لا ينامون في بيوتهم آمنين ولا يزالون يتوقعون الفتنة والحرب كما كان حال آل قزوين في مجاورة قلاع الملاحدة

حدثني الملك امام الدين يحيى بن الافتخاري رضي الله عنه قال : أذكر ونحن بقزوين اذا جاء الليل جعلنا جميع مالنا من أساس وقماش ورحل في سراديب لنا في دورنا غامضة خفية ولا نترك على وجه الارض شيئاً خوفاً من كبسات الملاحدة فاذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا فاذا جاء الليل فعلنا ذلك . ولاجل ذلك كثر حمل القزاونة للسكاكين والسلاح . وما زال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمر شمس الدين قاضي قزوين وتوجهه الى (قان) واحضار العسكر وتخريب قلاع الملاحدة ما كان وليس هذا الموضوع موضع استيفاء الكلام في هذا فانه اعتراض وليس بمقصود . وكما جرى للموفق بن المتوكل في مرابطة الزنج أربعة عشر سنة ما زال يطاردهم من البصرة وواسط طول هذه المدة حتى أفناهم وكان لطول المدة قد ابتنى الزنج هناك مدائن ثم خربت .

وأما أواخرهم أعني أواخر خلفاء بني العباس فضعفوا غاية الضعف حتى عصت تكريت عليهم وفي ذلك يقول شاعرهم

في العسكر المنصور نحن عصابة * من دولة أخسس بنا من معشر
خذ عقلنا من عقدنا فيما ترى * من خسة ورقاعة وتهوّر
تكريت تعجزنا ونحن بعقلنا * نمضي لنأخذ ترمذاً من سنجر.

وكانوا أعني المتأخرين من خلفاء بني العباس قد اقتصروا في آخر الامر على مملكة العراق فحسب . حتى أن اربل لم تكن في حكمهم . وما زالت عن حكمهم الى أن مات مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك صاحب اربل . وذلك في أيام المستنصر فعين علي شرف الدين اقبال الشرابي وكان مقدم الجيوش ليتوجه الى اربل ليفتحها . وجهزه بالعساكر فتوجه الشرابي اليها وأقام عليها أياماً محاصراً ثم فتحها فضربت البشائر ببغداد يوم وصول الطائر بفتحها . فانظر الى دولة تضرب البشائر على أبواب صاحبها ويزين البلد لاجل فتح قلعة (اربل) التي هي اليوم في هذه الدولة من أحقر الاعمال وأصغرها وأهونها . بل قد كان ملوك الاطراف مثل ملوك الشام ومصر وصاحب الموصل يحملون اليهم في كل سنة شيئاً على سبيل الهدية والمكافئة ويطلبون منهم تقليداً بولاية بلادهم بحيث يتسلطون بذلك على رعيتهم ويوجبون عليهم طاعتهم ولعل الخلفاء قد كانوا يعوضون ملوك الاطراف عن هداياهم بما يناسبها أو يفضل عنها . كل ذلك لحفظ الناموس الظاهر وليكون لهم في البلاد والاطراف السكة والخطبة حتى صار يضرب مثلاً لمن له ظاهر الامر وليس له في باطنه شيء أن يقال : قنع فلان من الامر الفلاني بالسكة والخطبة . يعني قنع منه بالاسم دون الحقيقة . فهذه جمل من أحوال الدولة العباسية . وأما الدولتان البويهية والسلجوقية فلم تعرض مملكتهما مع قوة شوكة ملوكهما كعضد الدولة في بني بويه وطغرلبك في بني سلجوق ولم تعم طاعتها ولم يشمل ملكها . وأما الدولة الخورزمشاهية مع أن جريدة السلطان جلال الدين اشتملت على أربعمائة الف مقاتل فلم يعرض ملكها أيضاً ولا تجاوزت النواحي القريبة منها . بل جلال الدين غزى أطراف الهند

ومن الحقوق الواجبة للملك على الرعية التعظيم والتفخيم لشأنه في الباطن والظاهر وتعويد النفس على ذلك ورياضتها به بحيث يصير ملكة مستقرة وتربية الأولاد على ذلك وتأديبهم به ليتربى هذا المعنى معهم • وهاهنا موضع حكاية • وهي أن سلطان هذا العصر ثبت الله قواعد دولته وبسط في الخافقين ظل معدلته لما ورد الى بغداد في سنة ثمان وتسعين وستمائة دخل المستنصرية لمشاهدتها والتفرج فيها • وكانت قبل وروده اليها قد زُيّنت وجلس المدرّسون على سدّدهم والفقهاء بين أيديهم وفي أيديهم أجزاء القرآن وهم يقرؤن منها • فاتفق أن الركاب السلطاني بدأ بالاجتياز على طائفة الشافعية ومدرّسها الشيخ جمال الدين عبد الله العاقولي وهو رئيس الشافعية ببغداد • فلما نظروا اليه قاموا قياماً فقال للمدرس المذكور كيف جاز أن تقوموا لي وتتركوا كلام الله • فأجاب المدرس بجواب لم يقع بموقع الاستصواب في الحضرة السلطانية أعلا الله في الدنيا كلمتها وفي الآخرة درجتها • ثم بعد ذلك حكى لي المدرس المذكور صورة السؤال والجواب • فأما السؤال فهو ما حكيته وأما جوابه فلم أضبطه وقلت قد كان يمكن أن يقال في جواب هذا السؤال : ان تركنا للمصحف اذا كان في أيدينا واشتغالنا بغيره لم يحرّم علينا في شريعتنا ولا جملت علينا في ذلك من حرج ثم ان هذا المصحف الذي قد تركناه وقمنا بين يدي السلطان قد أُمرنا فيه بتعظيم سلاطيننا

ومن الحقوق الواجبة للملك على رعيته النصيحة فمنها ما جاء في الحديث صلوات الله وسلامه على من نسب اليه قوله صلى الله عليه وسلم (الدين النصيحة قيل لمن يا رسول الله قال لله ولرسوله ولجماعة المسلمين) — ومنها ترك اغتياب الملك في ظهر الغيب قال صلى الله عليه وسلم (لا تسبوا الولاة

فانهم ان أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر وان أساؤا فعليهم الوزر وعليكم الصبر وانما هم نقمة ينتقم الله بها ممن يشاء فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية والغضب واستقبلوها بالاستكانة والتضرع)

هذا ماأورده ابن طباطبا في كتابه متعلقاً بالحقوق التي تجب على الرعية لمليكها ومنها يعلم القارئ أنه ذكر حقوق الولاة ولم يتعرّض لحقوق الخلفاء لان حقوق الخلفاء قررتها الشريعة السمحاء بانها هي حقوق النبي صلى الله عليه وسلم حتى غالى بعضهم فيها فقال : يجب على المسلمين أن يعتقدوا في خليفتهم أنه باطن أسرار الولاية المحمدية ومهبط أنوارها لانه بعرشه يمثلها فيلزم أن يكون أميناً فطناً محفوظاً من الهويّ مع السقطات المنافية لاحكام الدين المحمدي الكريم . أما الامانة فهي شرط من شروط الاستحقاق الصحيح . لان الخليفة يعطى لفظه أنه الأمين على حقوق الله في عباده وحقوق العباد أيضاً . والا لو كان غير أمين لما صحّ أن تكون بيده أموال الناس وأرواحهم يتصرف فيها طبق المصلحة الحقيقية للامم الاسلامية . خصوصاً وأن الانسان لو قال لغيره مثلا : انك غير أمين فقد قذفه ورماه بالخيانة والقذف بالخيانه يناقض الأدب الواجب على الرعية للخليفة فكيف لاتكون الامانة شرطاً من شروط الامامة ولو سهى عنه بعضهم . وأما الفطانه فهي شرط تكميلي تلزم ملاحظته في اجماع القوم فان الخليفة اذا لم يكن فطناً بان كان جاهلا غليظ الرأي بسيط النظر غير ذي دهاء وكياسة وفراسة فقد عرّض حقوق الرعية للضياع ومهد لها سبل الفناء والاضطراب . فتوقياً من ذلك يلزم أن يكون الامام فطناً واسع التدبير زكيّ الادراك نقيّ الذكاء غير عيّ اوغبيّ أوأبكم أوأخرس مثلا . وأما الحفظ من السقطات المنافية لا داب

الدين الصحيحة فهو من الكمالات الواجب التحلي بها وان كانت ليست تحت اختيار الانسان الا أن التوفيق الالهي لا يتخلى عن أئمة الدين الراشدين الذين يمثلون على عروش خلافتهم ما كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم مع أمته من الادب مع الله والناس ٠ سيما والخلفاء الذين يتقون ويقع عليهم اجماع الأمة هم ممنوحون من ربهم هداية ونصراً على النفس والعدو فلا سلطان لشيطان عليهم بأيّ وجه من الوجوه ٠ أما الولاة والامراء فواجباتهم على رعيتهم تنحصر فيما نقلناه عن ابن طباطبا وما أوردناه في هذا الباب

فلننظر الآن ان كان جلالة مولانا أمير المؤمنين المجاهد في سبيل الدين الخليفة الأعظم السلطان (عبد الحميد خان) محرزاً لكل هذه الصفات الموجبة لاعتقاد خلافته ولزوم طاعته باعتبار كونه اماماً للمسلمين كافة أو لا

لا ريب في أن جلالة هذا المليك الأطهر متحلٍّ بحلى هذه الفضائل والكمالات كلها فهو الأمين الوحيد الذي لم يتصرف في أموال الملك الاّ بالحكمة والعدالة واذا رأى عجزاً في مالية دولته سدّه من ماله الخاص وثروته الطائلة ٠ وهو أوّل خليفة تبرّع من ماله الخاص بنفقات الحروب واصلاح سبل الممالك الاسلامية مع وفرة المال في خزينة الدولة وأياديه البيضاء قرّرت له حسن الوفاء بحقوق الامانة النبوية التي يختص الله بها أهل العناية والتوفيق ٠ ولم يشع عنه أنه أنفق على نفسه من مال الملك غير ما تقرّر له تطلعاً الى بذخ أو ترف بل اشتهر انه تنازل عن معظم مرتبه الخاص به لمساعدة حكومته في سدّ مطالبها وحاجاتها ٠ ولو أردنا تعداد مآثره الكريمة على الأمم الاسلامية لضاقت بنا صفحات هذا الكتاب ٠ اذ لو نظرت الى نظارة النافعة الجليلة لرأيت خزائنها مترعة بالمال تكاد تفيض على الجوانب

ومع ذلك ترى جلالته لا يستعين بشيء منها في مصالح الدولة بل اذا افتقرت المصالح الى مال سدّده وقام به قومة الحميّ الحافظ لحماه بكل أسباب العزة والجاه • فأمانته رضي الله عنه لا مشاحة فيها ولا تحتمل التأويل • فهو الأمين الوحيد الذي شاد عماد العزة الحقيقية بأطهر الخصال وأبرّ الصفات والخلال ولم يطمع في أن يستأثر بجاه أو مال • على أن جلالته لم يألُ جهداً في ترضية نفوس المسلمين فكل قادم الى دار عرشه المكين يجد فيها ما يغنيه فيعيش سعيداً مدة اقامته بها ثم يعود مزوّداً بالآلاء والنعم والتعطفات وكل ذلك من فيض جيبه الخاص لا علاقة له باموال الدولة التي تختص بالمصالح العامة ورواتب العمال

وبالجملة فلا رأي يخالف رأينا هذا في أمانة مولانا أمير المؤمنين • فقد تضمنت صحف تاريخ هذا العصر كل الدلائل المحققة لامانته وسخائه وكرمه من ثروته الخاصة به • ولم تدوّن في بطون التاريخ مآثر تضارع هذه المآثر الحميدية لخليفة من الخلفاء السالفين بعد الراشدين عليهم رضوان الله أجمعين • وأما فطنته رضي الله عنه فقد طبق الخافقين أمرها وشهد سياسيوا العالم بأسرهم أن فطنته لا تضارع أو تشاكه • وهذا الاجماع العصري أقلق أوربا وحرّك فيها مثيرات الحذر منه ومن دولته أعزّه الله • وقد حفظت حوافظ التاريخ المتمدن آثار سياسته الحكيمة ودهائه الرشيد مقترنة بالاعجاب التام من سائر دول الأنام • حتى أن بسمارك الشهير بالحذق في السياسة والحكمة الغربية لما سئل عن أول سياسي على ظهر الكرة الأرضية لم يسعه الاّ أن يجيب بان أسمى مفكر وأعظم سياسي ذي دهاء حير الألباب وتضاءلت فيه الفهوم هو السلطان عبد الحميد • وكان سائلوه ينتظرون منه أن يخبرهم عن

نفسه أو عن غلادستون أو بطرس الاكبر ومن نحا نحوهم واكتسب ما اكتسبوه من طائر الصيت وعظيم السمعة . فلما فاجأهم بجوابه المسطور في التاريخ اندهشوا وقالوا له : نحن لا نعلم الا أن أول سياسي في هذا العصر هو بسمارك الذي يحدثنا . فقال لهم : ان كل شعرة في جسم السلطان عبدالحميد تحتها الف بسمارك . فليس برهان أكبر من هذا على فطانة امامنا وسلطاننا

وزد على ذلك أنه وحده في مركزه خصم أوربا بأسرها في الدين والسياسة فلو لم يوفق بدهائه وسياسته الفائقة الى أسباب الحماية والرعاية والوقاية لممالكه لأصبحت دول الاسلام فريسة لضواري الجشع الأجنبي فمنذا الذي يسعه أن يحفظ نفسه وملكه الواسع في ظروف كهذه تهدد الاسلام بكل الأرزاء والآلام غير مليك موفق من الله وامام عادل تحرس عرشه الملائكة وتعززه عناية الله مع حسن رعايته ألا وهو جلالة السلطان عبد الحميد الذي يملك الكلمة التي لو فاه بها لماج الكون وتداعت قوائم الوجود وهاجت العوالم وفر الملوك قبل رعاياهم الى حيث فناؤهم وهلاكهم . فذكاؤه وفطنته لا يحتملان أيضاً تأويلاً ولا تخريجاً

كيف لا وقد شهدت أعماله الجليلة ومشروعاته الخطيرة بعد نظره في الأمور وقراءته أفكار الأمم المناوئة للاسلام حيث عمد الى حماية بيت الله الحرام بمشروعي سكة حديد الحجاز والسلك البرقي الرابطين للممالك الاسلامية والحافظين لكيان الحرمين المقدسين . لا نظن وجود جماد لا يستقر في نفسه برهان فطنة هذا السلطان فضلاً عن الانسان . ولو حاولنا بسط أقوال الساسة في ذكاء وفطنة جلالة مولانا أمير المؤمنين لاحتجنا الى مجلدات كثيرة فحسبنا في موضوع كتابنا هذا ما ألمعنا اليه بطريق اجمالي حتى يتبح

الله لنا فرصة نتمكن فيها من التفصيل الواسع . وربما أتينا ببعض ما نعلمه في الباب الثالث ان شاء الله .

وأما الحفظ من السقطات الدينية فبحمده تعالى قد وُفق له جلالة مولانا أمير المؤمنين . اذ لم نسمع عن جلالته أنه خالف دين ربه في أمر من أمور المسلمين فضلاً عن صلاحه رضي الله عنه ومحافظته على الفرائض الدينية والشعائر الملية المقدسة . وإن أعداءه يشهدون بذلك وبشدّته في أمر الدين وكمال تمسكه بالعقيدة الصحيحة التي هي الدستور العادل لاصلاح أمر الأُمة ولو رأى القارئ لهذا الكتاب مشهد موكبه السامي يوم الجمعة لأداء الفريضة الشرعية لحدّثته نفسه بانه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم المبارك بجلالة منظره وجمال موكبه . اذ يرى الخشوع سائداً على الناس أجمعين والخضوع مالئاً أفئدتهم والاحترام لجلالة امامهم يعلو وجوههم ويكتنف جوارحهم والعلماء والوزراء محيطون بعربة الخليفة واضعي أيديهم على صدورهم يمثلون أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم . ويرى الأجانب ينظرون نظر الخشية والوقار والهيبة ملءُ صدورهم والرهبة تكاد تقذفهم وترمي بهم الى الأرض صرعاً وصعقاً .

فهذا المشهد الديني الرهيب المؤثر على النفوس كلها برهان ساطع يبعث في ضمائر الكافة الاذعان الكامل والاعتقاد الراسخ بان امام المؤمنين وسلطان الموحدين محفوظ بربه من السقوط فيما يخالف دينه بأيّ وجه من الوجوه وأكبر دليل على هذا ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم (الناس على دين ملوكهم) فاذا كان الملك صالح الفؤاد حسن السير والسيرة طيب العمل تقياً نقياً شديداً في دينه متعبداً متزهداً كانت أمته كذلك وكانت مدينته التي قام

فيها عرشه تمثل المدينة التي بها قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

فبناء على ذلك ترى دار الخلافة وهي القسطنطينية هي المظهر الأول لأخلاق جلالة الخليفة وتديّنه بدينه القويم ٠ وهي غاية في اقامة الشعائر الاسلامية وسكانها لا يفوتهم وقت فريضة مكتوبة حتى حظر جلالة الخليفة على أهل الاستانة التي هي (القسطنطينية) الاشتغال بالاعمال عند حلول أيّ وقت من الاوقات الخمسة المفروضة ٠ فاذا كنتَ في دار السعادة وحلّ وقت منها رأيت المعامل خلوّاً من عمالها والحوانيت كذلك ٠ وأما المساجد فتراها ملآى بالمصلين والعباد فاذا قضيت الصلاة انتشر الناس وباشروا أعمالهم بكل هدوّ وسكينة ووقار وأدب وحشمة وكرم أخلاق وحسن معاملة فلو كانت أخلاق الامام غير دينية محضة لما كانت هذه الاحوال الشريفة والاطوار الاسلامية المقدسة شعار أهل الاستانة وسكانها

ظهر من كل ذلك أن جلالة الخليفة الاعظم السلطان عبد الحميد حائز على كل الصفات والاخلاق ومستكملٌ لكل شروط الاستحقاق للخلافة والامامة ٠ اذ كل ما قدّمناه دالٌّ أبلغ دلالة وأشرفها على أن جلالته أكمل الخلفاء أدباً وديناً مع الله والناس بعد الخلفاء الراشدين ٠ وعلى هذا نختم الفصل الاول من الباب الثاني والله وليّ التوفيق والهداية

﴿ الفصل الثاني ﴾

﴿ في حقوق الخليفة العمومية ﴾

قبل الدخول في هذا الفصل نبسط للمطالع قضية طبيعية تتعلق بأحكام الفطرة الالهية المنصبة على العوالم البشرية . وهي أن الشخصيات أُسس العموميات وقواعدها التي تحقق بها والجزئيات هي الكليات مع زيادة نسبة أو قيد في نشأة الاطلاق الاصلي في الأمور الكلية . فاذا قلنا مثلاً : ان هذا الخلق شخصيٌّ فكأنَّنا قلنا إنه عمومي زيدت عليه مزية تأصّله في نفس صاحبه . كذلك اذا قلنا إن هذا الحق شخصي فهو عمومي مع زيادة نسبة الاستحقاق الحقيقية الموجبة على الغير الوفاء بها . وهذه القواعد الاساسية لا تعزب عن أفكار أهل الاختبار الذين درسوا علوم العمران وواجبات الحقوق وتعلموا العلم المؤهّل لهم لان يكونوا ذوي دراية باحكام الزمان وأحوال الانسان . والعجيب منها أن الأمر الكلي يصير جزأ في أحد الأمور الجزئيَّة كما قال العلماء : كلّ كليٍّ جزءٌ لجزئيه وكلّ جزئيّ كلٌّ لكليه

وقد أسلفنا في الفصل السالف الحقوق الشخصية الواجبة الأداء على الرعية لامامها ونريد أن نأتي على الحقوق العمومية التي للامام أيضاً على أمته وكان اللازم في الترتيب الفني أن نأتي بالكليات أولاً ثم نثني بالشخصيات التي هي الجزئيات لكننا رأينا أن نلتزم الترتيب الفطري بالقول الشارح فنبسط النسب باعتبار علائقها الاصلية ثم نشرحها مجرّدة لتكون أعلق بالافكار وأمكن في الفهم وأقرب للوجدان خصوصاً وأن الأمر معنا في هذا المقام

على غير ما توخاه أهل فن القياس . لأن أهل القياس يتخذون الكليات مقومات ومكونات للجزئيات . أما هنا فالجزئيات مقومة للكليات أي أن الحقوق الشخصية مكونة للحقوق العمومية والنسبة أي نسبة الحقوق الى مرجعها واحدة في الحالتين أي في الخصوص والعموم . على أن هذا البحث ليس طول الكلام فيه مقصوداً لنا فحسب أهل العلم ما ألمعنا اليه في هذا الايجاز . ولنعد الى موضوعنا الحقيقي وهو التكلم عن الحقوق الواجبة بصفة عمومية لجلالة مولانا أمير المؤمنين السلطان الغازي (عبد الحميد خان) أعز الله به دينه فنقول :

اعلم أن الحقوق التي شرحناها في الفصل المتقدم هي وان كانت شخصية أي واجبة لشخص جلالة الخليفة الاسلامي فهي عمومية أيضاً أي واجبة المراعاة بين المؤمنين اقامة لشعائر القاعدة النبوية (لا تزال أمتي بخير ما وقر صغيرهم كبيرهم ورحم كبيرهم صغيرهم) فاذا قطعنا النظر عن صفة الامامة والخلافة ونظرنا الى كون الامام في نفسه مسلماً قانتاً خاشعاً لله سامي المكانة عريق الاصل شريف المحتد كريم العنصر قويم النشأة كبير المقام نافذ الكلمة في عشيرته محترماً في سربه غنياً عفوفاً طاهر الذيل وجب علينا معاشر المؤمنين احترامه لا لكونه اماماً فقط بل لكونه مطلق مسلم تحلى بأسمى الصفات وأشرف الخصال . وتحتم على الكافة الانقياد لرأيه في الدين بما يراه مؤيداً لمبادئه مقيماً لشعائره واقياً له من سطوات الاعداء وعدوان الدخلاء . فكل الحقوق التي بسطناها فيما سلف من الطاعة والاحترام والتعظيم والتوقير يستحقها المسلم المتصف بالصفات المتقدمة فليست مختصة بالامام والخليفة وانما تقررت لهذا بطريق الأولوية فقط . اذ رواة السنة والحديث الأمناء

على دين الأُمة وأحكامه وقواعده لم تحترم روايتهم الاّ بالاذعان لهم بالصفات السالفة التي اكتسبوها وتواترت عنهم والاّ لو كانوا على غير الصفات القويمة لما قبلنا روايتهم ولا صدقناها بل كنا نضرب بها عرض الحائط .

فظهر أن سبب التصديق هو الاذعان بوفور الاخلاق الكريمة والصفات المقدسة الموجبة لتحقيق آداب الدين وتبادلها بين المسلمين . ولو كنا نعلم أن استحقاق الامامة قد يكون بغير التحلي بالصفات المرّجحة لها لما أقدمنا على بسط هذا الذي بسطناه . فان الزعامة اذا لم تكن آداب الدين لها خير دعامة وأقوم ركن كانت حبالة من حبائل الشيطان وفارقتها روح الاعتدال المحمدي بل قلاها السير على المناهج الشرعية . أما اذا كانت ودعائمها آداب الدين فهي بعينها زعامة الرسول صلى الله عليه وسلم فيكون لها من الحقوق ماليس لغيرها من الصفات المميزة للمراتب البشرية . وعلى هذا لا يؤود القارئ حفظ الاخلاق التي يتمكن بها من الحفيظة عن الحقوق المتبادلة . فاذا تجلت له حقائق المقاصد استخلص لنفسه خلاصة مربّية لآدابه مرقية لأخلاقه ورافعة لنفسه ومقوّمة لافكاره ومرشدة لعقله الى كيف يسير مع عشائره ومعاصريه وولي أمره وامامه الشرعي . وفي هذه الحالة يتمكن المفكر الناظر نظر الحكمة والاختبار أن يفهم النكتة التي توخيناها لتوحيد الحقوق بصفتيها العمومية والخصوصية ويدرك أن البيان الذي قدمناه في معنى الحقوق الشخصية للخليفة مع النقول التي نقلناها في ذلك كافٍ في فهم الحقوق العمومية خصوصاً اذا استعمل العقل في المطالعة ولم ينصرف فؤاده بصوارف العماية والغاية أو ينشغل بمشاغل النفس وشواغل الحدس والحس ولم يمدّ وجدانه لقبول أنوار المعاني التي تفيض على أفئدة المقبلين على فهمها

بالعزيمة والصدق والاخلاص . وأملنا أن يكون مطالعوا هذا الكتاب كلهم أو جلهم من اخوان الرعاية والعناية

فالطاعة المفروضة للخليفة حق من حقوقه الشخصية والعمومية أيضا . بيان ذلك أن هذا الحق يستحقه الخليفه بمكانته الشخصية من أفئدة الرعية وتأصل في أخلاق الدين تحقيقاً لتوقير الصغير للكبير في شريعة البشير النذير صلى الله عليه وسلم . لان الانسان المستكمل للشروط التي تقدمه على سواه في احتمال اعباء الملك والخلافة العامة ليس هين المكانة أو ضعيف العشيرة أو غير محترم في قومه بل لا بدّ وأن يكون عريقاً مطاعاً محترماً مقدس الرأي في الامة قبل أن يولى . وهذه سنة قدسها التاريخ ولم يرو لنا أن مهاناً ذليلاً حقيراً ليس محرزاً للصفات المرجحة لكمال عقله وأدبه تولى أمر المؤمنين دفعة واحدة فينتقل لأول وهلة من تحقير العامة له الى احترامهم بلا أسباب تحمل الامة على ذلك قبل التولية . فظهر انك أن الاستحقاق للزعامة هو وحده البرهان الاول على وجوب الطاعة سواء ولّي المطاع أمر المسلمين أو لم يولّ . فاذا كانت الطاعة حقاً من حقوق الانسان الكريم الخلق والخلق بصفة عمومية فهي بالاولى حق من الحقوق الشرعية المقدسة المكتسبة للخليفة العام والسلطان الاكبر الذي بيده أمر المؤمنين . وكذلك بقية الحقوق المتبادلة بين الرعية والامام وتقدمت في هذا الكتاب فانها كما هي مستحقه للانسان الصالح النفس والعمل كذلك هي مستحقة للامام والخليفة على سبيل التعميم .

ونزد على ذلك وجوب نصرة الامام في آماله وأمياله وتسديد آرائه وتأييدها وحب الخير له ورد افتراء الاعداء عنه ودرء كل تهمة وجهت اليه

من عدوّ أو دخيل والخطبة باسمه على منابر عامة المسلمين وخاصتهم . فان هذه الحقوق عمومية لم تتعين للامام الاّ بعد التولية فتبادلها ثمّ بطريق الوجوب على سائر المسلمين كالسكة ورعاية الاحكام وعدم الوقوف في سبيل نفاذها .

وكلّ ذي اصالة في الرأي يشعر من نفسه بكل حق نفسي تحتمه الشريعة المطهرة على كل مسلم لامامه ووليّ أمر سائر المسلمين . ولهذا نقتصر في هذا الفصل على ما كتبناه فيه مكتفين بذكاء القارئ وأدبه اذ هما كافيان في استظهار الواجبات العامة والخاصة للولاة والخلفاء . وعلى ذلك نختم هذا الكلام بان موالاة من يحبه الخليفة من حقوقه الواجبة له على رعاياه . فاذا اصطفى اليه رجالاً أمناء مخلصين في مصلحة الدين والامة وجب على سائر المسلمين اصطفاؤهم أيضاً واحترامهم والوفاء بحقوقهم وعهودهم وعقودهم والتحبب اليهم والتقرّب منهم واكتساب رضوانهم السرمدي لأن الخليفة ما اصطفاهم الاّ بعد أن آنس منهم منفعة عامة أو خاصة له ولعامة المسلمين وعلى كلتى الحالتين يجب اجتباؤهم لان المنفعة التي تعود على شخص الامام تعود على عامة المسلمين لضرورة اتحاد الشأن والمصلحة المشروعة كما بينا ذلك غير مرة فيما سلف . وانما أرشدنا أفكار القارئين لهذا الكتاب الى هذا المعنى الجدير بالرعاية لان هذه الظروف قضت على المسلمين بأن يتنافروا ويتشاقوا ويتباغضوا ولم يحترموا آداب الاخاء فيما بينهم فترى السعاية بالناس منتشرة فينا كأنها صارت خلقاً من الاخلاق المقدسة .. وكذلك الوشاية والاغراء والافتراء على كبار المقام الذين أحرزوا وافر السمعة والجاه في ظل جلالة الخليفة الأعظم رضي الله عنه

ويا ليت هذا الخلق الذميم لم يتأصل في أفئدة كثير ممن ظهروا بمظهر الخدمة العمومية ورعاية الأدب القومي . بل هذا الحال الشائن هو وحده في الواقع الحامل لنا على تأليف هذا الكتاب الفريد في بابه . خصوصاً وأن الاعداء ينظرون الينا فيلمحون من خلال أحوالنا وأطوارنا ما يبعدنا في نظرهم واعتبارهم عن الحضارة والتقدم والصلاح والانصلاح ولا سبب لدخول العدوّ حكماً في مصالحنا وأحوالنا سوى تفريطنا فى واجباتنا نحو ولاة أمورنا الذين قدسهم الدين والأدب الحياتى . على أنه لا فائدة لنا من التمادي فيما بيننا والتصدي والتنافر والتضادّ بل فى ذلك كل الضرر كما لا يخفى وماذا يضرّنا لو تقدم منا انسانٌ ونال فوق ما نالته الجوزاء من الرفعة والعلوّ وأحرز لدى الخليفة كل عناية بشأنه ورعاية وتعظيم وحبّ .؟. بل أيُّ شيءٍ يقدح فينا اذا استخلص جلالة الخليفة لدولته الرجال وقدمهم وأغدق عليهم الجاه والمال .؟. لا شيء علينا ولا ضرر من ذلك يتوجه الينا وانما هو فساد التربية اقتادنا الى هذا التنافر الشائن للجامعة والثالم للآداب والجارح للحكمة . ولاجل ازالة ما في صدور الحاقدين على رجال الدولة الكبار الفخام سنأتي على نبذة صغيرة نشرح فيها أسباب ونتائج هذا التضادّ الممقوت الذي يغضب الله ورسوله وخليفته . والآن نوقف جواد التحرير عن التوسع فى هذا الفصل الوجيز والله هو القوي العزيز

﴿ الفصل الثالث ﴾

﴿ في حقوق الافراد ﴾

(وفيه تنبيهان)

« الأوّل في بيان الحقوق المقابلة لحقوق الخليفة »

(الثاني في بيان الحقوق التي لكلّ فرد على كل فرد)

{ وفي هذا ارشاد شريف الى آداب المعشرة الانسانية }

﴿ التنبية الاول في الحقوق المقابلة لحقوق الخليفة الشخصية ﴾

اعلم أنه كما للامام على أمته حقوقٌ كذلك للامة على الامام حقوق وقد علمت مما تقدم الحقوق التي للامام على الامة والآن ننبهك الى الحقوق التي للأمة كالاشفاق والحماية والعدل والانصاف . وبما أننا نقلنا عن العلامة ابن طباطبا ماقاله في كتابه الفخري عن الحقوق التي للملك فيجب أن ننقل للقراء أيضا ما قاله في الحقوق التي للرعية لما في ذلك من درء تهمة التحيز لغرض مخصوص قال .

وأما الحقوق الواجبة للرعية على الملك فمنها حماية البيضة وسد الثغور وتحصين الاطراف وأمن السوابل وقمع الدعار . فهذه حقوق تلزم السلطان وتجري مجرى الحقوق الواجبة . وبهذه الامور تجب طاعته على رعيته وبنحو من هذا احتجّ الخوارج على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عقب انقضاء

حرب صفين قالوا له : أنت فرطت في حفظ هذا الثغر يعني ثغر الشام بتحكيمك الحكمين فأنت مخطئ مفرّط فليس لك علينا طاعة فان اعترفت بهذا الخطأ واستغفرت رجعنا الى طاعتك وقاتلنا معك العدوّ . فعرّفهم عليه السلام أنه غلب على رأيه في قضية التحكيم وأن التحكيم لم يكن من رأيه فأصرّوا على قولهم ولم يقبلوا ونابذوه وقاتلوه حتى كانت الوقعة المشهورة بالنهروان .

ومن الحقوق الواجبة للرعية على الملك الرفق بهم والصبر على صادرات هفواتهم قال صلوات الله عليه وسلامه (ما كان الرفق في شيء الاّ زانه ولا كان الخرق في شيء الاّ شانه) وقد روي عنه صلوات الله عليه وسلامه (من الرفق أشياء لا تليق الاّ بمنصب النبوة) كان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام كثير الرفق موصوفاً به . دخل مرة الى الحمام عقيب مرضة طويلة أضعفته وانتهكت قوته فأدخل الحمام وهو في غاية الضعف فطلب من مملوك كان واقفاً على رأسه ماء حارًّا فأحضر له في طاسة ماء شديد الحرارة فلما قرب منه اضطربت يد المملوك فوقعت الطاسة عليه فاحرق الماء جسده فلم يؤاخذه ولا بكلام . ثم طلب منه بعد ذلك بساعة ماء بارداً فاحضر له في تلك الطاسة ماء شديد البرد فحين اذ قرب اتفق له ما اتفق في المرة الاولى من اضطراب يده ووقوع الطاسة عليه بذلك الماء الشديد البرد فغشي عليه وكاد يموت . فلما أفاق قال للمملوك : انك كنت تريد قتلي فعرفني : ولم يزد على هذه الكلمة رضي الله عنه . قيل تقدم رجل أبخر الى بعض الرؤساء يشاوره فقال له تنحّ عني فقد آذيتني قال الرجل . لا كرامة ولا عزازة ما رأسناك وقمنا بين يديك الاّ حتى تحتمل منا ما هو اشد من هذا وتصبر

منا على ما هو أعظم منه •

ومما يجب للرعية على الملك ردع قويّهم عن ضعيفهم وانصاف ذليلهم من عزيزهم واقامة الحدود فيهم واقرار حقوقهم مقارّها واغاثة ملهوفهم واجابة مستصرخهم والتسوية في حكمه بين الأبعد منهم والأقرب والأذل والأعز • قال عمر بن الخطاب لرجل اني لا أحبك • قال فتنقصني من حقي شيئاً ؟ قال عمر لا • قال الرجل فما يفرح بالحبّ بعد هذا الاّ النساء • ويجب للملك أن يعرف نعمة الله عليه بأن اصطفاه لهذه المرتبة العلية دون سائر الخلق وبأن جعله يفزع منه كل أحد ولم يجعله يفزع من أحد فلا يزال لها ذاكراً شاكراً • فأما الذكر فلامتثال قوله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدّث) وأما الشكر فلطلب المزيد لقوله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنّكم) ويجب أن يكون بينه وبين ربه معاملة سرية لا يعلم بها الاّ الله تعالى • فتلك المعاملة تقي مصارع السوء • وهذه العبارة مقبولة عند جميع أصحاب الملل وعند الحكماء أيضاً هي مقبولة ويمكن تأويلها على هذا المطلوب بحسب اعتقادهم • ويجب أن تكون له دعوات يناجي بها ربه وهي دعوات تليق بالملوك لا تصلح للعوامّ • ولا بأس أن أثبت في هذا الموضع فصلاً من الدعاء الملكي • وهذا مما اقترحته أنا ولم أعلم أن أحداً تنبه اليه

﴿ فصل في الدعاء مختصر ﴾

اللهم اني أبرأ اليك من حولي وقوتي وألجأ الى حولك وقوتك أحمدك على أن أوجدتني من العدم • وفضلتني على كثير من الأمم • وجعلت في يدي زمام خلقك • واستخلفتني على أرضك • اللهم نخذ بيدي من المضائق •

واكشف لي عن وجوه الحقائق . ووفقني لما تحب واعصمني من الزلل ولا تسلب عني ستر احسانك . وقني مصارع السوء . واكفني كيد الحساد . وشماتة الاضداد والطف بي في سائر متصرفاتي . واكفني من جميع جهاتي يا أرحم الراحمين .

(عودٌ) ويحسن بالملك الفاضل اكرام فضلاء رعيته واختصاصهم بالبرّ . قال بعض الحكماء : لا يجوز أن يكون الفاضل من الرجال الاّ مع الملوك مكرماً أو مع النساك متبتلاً كالفيل لا يحسن أن يرى الاّ في موضعين إما في البريّة وحشياً وإما للملوك مركباً كما قال الشاعر

يمثل الفيل إما عند ملك * وإما في مراتعه منيعا

ومما يكره للملك مخالطة الانذال والسوقة والجهال فان سماع ألفاظهم الساقطة . ومعانيهم المرذولة . وعباراتهم الدنيئة مما يحط الهمة ويضع المنزلة ويصدئ القلب ويزري بالملك . ومخالطة الاشراف ومعاشرة أفاضل الرجال مما يعلي الهمة ويزكي القلب ويفتق الذهن ويبسط اللسان . وتلك قاعدة مطردة للملوك ما زالوا يدخلون اليهم عوامّ الرعية ويعاشرونهم ويستخدمونهم ولم يخل أحد من الخلفاء من مثل هذا وكأن لسان حالهم يقول : نحن نخلي الكبار كباراً فاذا اختصصنا عامياً نوهنا بذكره وقدمناه حتى يصير من الخواص كما أننا اذا أعرضنا عن أحد من الخواص أرذلناه حتى يصير من أراذل العوام . وكذلك هو فان هذه خاصية من خواص الملك وقد سبق ذكرها .

وكل هذا مأخوذ من الخواص الالهية فان العناية الالهية اذا صدرت قدرة منها الى النفوس صار ذلك الانسان نبياً أو اماماً أو ملكاً واذا صدرت

في حق الزمان صار ذلك اليوم العيد الكبير وليلة القدر وأيام الحج وأيام المواسم والزيارات لسائر الأمم واذا صدرت تلك الذرّة في حق المكان صار بيت مكة والبيت المقدس والمشاهد والجوامع والزيارات والمتعبدات ومواضع التقربات وها هنا موضع حكاية ٠

كان ببغداد جمال يقال له عبد الغني بن الدرنوس فتوصل في أيام المستنصر حتى صار برّاجا في بعض أبراج دار الخليفة فما زال يحسن التوصل الى ولد المستنصر وهو المستعصم آخر الخلفاء العباسيين وكان في زمن أبيه محبوساً فما زال هذا البرّاج يتعهده بالخدمة طول مدة الأيام المستنصرية الى أن توفى المستنصر وجلس على سرير الخلافة ولده أبو أحمد المستعصم فعرف لهذا البراج حق الخدمة ورتبه متقدم البراجين وفي آخر الامر استحجبه في باطن داره واختصه وقدمه حتى بلغ الى أنه اذا دخل على الوزير ينهض له ويخلي له المجلس من جميع الناس اذا كان ابن الدرنوس حاضراً وسبب اخلاء المجلس الوزيري عند حضور ابن الدرنوس لاجل أنه يمكن أن يكون قد جاء في مشافهة من عند الخليفة ولقب نجم الدين الخاص وصار من أخص الناس بالخليفة وبلغ من منزلته أنه كان يتعرض لصاحب الديوان عند الخليفة وكان صاحب الديوان يعرض مطالعاته ومهامه على يد نجم الدين الخاص وكان يمده في كل سنة بمال طائل حتى يحفظ غيبته ويربيه في الحضرة الخليفية ٠ وجرى بيني وبين جمال الدين علي بن محمد الدستجرداني رحمه الله كلام في معنى ابن الدرنوس فصوبت أنا رأي المستعصم في الاحسان اليه وقلت له ٠ خدمه وأثبت عليه حقاً وقد كافأه فلا عيب في هذا وقال جمال الدين ما معناه : إن تسليطه لمثل ذلك الاحمق على أعراض الناس وأموالهم وادخاله في المملكة

حتى كاد أن يولي الوزراء ويعزلهم قبيح من المستعصم دليل على جهله والاّ فان كان مقصوده الاحسان اليه مكافأة له على سابق خدمته قد كان يجب أن يكون ذلك بمال يعطاهُ أو يرفع منزلة لا يختل بسببها أمر في المملكة ولا يتطرق قدح في عقل الخليفة وكان نظر جمال الدين في هذا المعنى أدق من نظري والحق في جانبه رحمه الله وكانت هذه المفاوضة بيني وبينه في كتاب كتبته اليه اقتضى الحال فيه لذكر هذه القضية وكتب هو الجواب عنه وأعاد كتابي اليّ لاني التمست منه اعادة كتابي والكتابان هما في هذا التاريخ عندي بخطي وخطه رحمه الله

ومما يليق بالملك الفاضل ويكمل فضله أن يكون عالي الهمة رحيب الصدر محباً للرئاسة (كذا) معدّاً لها أسبابها طامح البصر اليها معملاً فكره في توسيع مملكته وعلوّ درجته غير مخلد الى التنعم ولا جانح الى الترف ولا منهمك في اللذات • قال بعض حكماء الفرس : همم الناس صغار وهمم الملوك كبار وألباب الملوك مشغولة بكل شيء عظيم وألباب السوقة مشغولة بأيسر الاشياء • وليعلم الملك أن الرئاسة عروسٌ مهورها الأنفس

نظر معاوية الى عسكر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في صفين فالتفت الى عمرو بن العاص وقال : من يطلب عظيماً يخاطر بعظيم • واذا نظرت فيما أحاول فاذا الموت في طلب العز أحسن عاقبة من الحياة مع الذلّ • قال بعض الشعراء :

هي النفس ان ماتت فقدمات قبلها * كرام وان تسلم فللحدثان
اذا النفس لم تشره الى طلب العلى * فتلك من الاموات في الحيوان

ومن الغاية في هذا المعنى قول امرئ القيس

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة * كفاني ولم أطلب قليلٌ من المال
ولكنّ ما أسعى لمجد مؤثل * وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

ومما يكمل فضل الملك أن تكون قوة الاختيار عنده سليمة لم تعترضها آفة فيكون يختار الرجال اختياراً فاضلاً — كان الناصر آية في الدنيا في اختيار الرجال فكان من توصلاته الى معرفة الرجل ان أشكل عليه حاله أن يشيع بين الناس أنه يريد أن يوليه المنصب الفلاني ثم يتمادى في ابرام ذلك أياماً فيمتلئ البلد بالاراجيف لذلك الرجل فيفترقُ فيه الناسُ فقوم يصوّبون ذلك الرأي ويصفون فضائل الرجل وقوم يغلطون الخليفة ويذكرون عيوب الرجل . وللخليفة عيون وأصحاب أخبار لا يؤبه لهم يخالطون أصناف الناس فيكتب أصحاب الاخبار اليه بما الناس فيه من الغليان في ذلك . فيعرف بصحة نظره وتمييزه أيّ القولين أرجح وأصوب فان رجح في نظره تفضيل الرجل ولاّه وخلع عليه وان ترجح عنده قول الطاعنين عليه وتبين له نقصه تركه وأعرض عنه وفي الجملة فحسن الاختيار أصلٌ عظيم . قال الشاعر

من كان راعيه ذئباً في حلوبته * فهو الذي نفسه في أمره ظلما
يرجو كفايته والغدر عادته * ومن يرد خائناً يستشعر الندما

ومما يكره للملوك المبالغة في الميل الى النساء والانهماك في محبتهنّ وقطع الزمان بالخلوة معهنّ . فأما مشاورتهنّ في الامور فجلبة للعجز ومدعاة الى الفساد ومنبهة على ضعف الرجل . اللهم الاّ أن تكون مشاورتهنّ يراد بها مخالفتهنّ كما قال عليه السلام (شاوروهنّ وخالفوهنّ) وفي هذا الحديث سؤآل وجواب . ان قال القائل : اذا كان المقصود مخالفتهنّ في آرائهنّ فأيّ فائدة في الأمر بمشاورتهنّ وقد كان يكفي أن يقال خالفوهنّ فيما يشرن به

فالجواب من وجهين احدهما أن الامر الأوّل للاباحة والامر الثاني للوجوب يعني اذا شاورتموهن فخالفوهنّ . والآخر أن الصواب لا يزال في خلاف آرائهن فاذا أشكل عليكم الصواب فشاوروهنّ فاذا ملن الى شيء فاعلموا أن الصواب في خلافه . وفي هذا تظهر فائدة الامر بمشاورتهنّ يعنى يستدل على الصواب

وحدث أن عضد الدولة فناخسرو بن بويه شغفته امرأة من جواريه حباً وغلبت عليه فاشتغل بها عن تدبير المملكة حتى ظهر الخلل بها فخلا به وزيره وقال له : أيها الملك ان هذه الجارية قد شغلتك عن مصالح دولتك حتى لقد تطرّق النقص عليها من عدة جهات وما سبب ذلك الاّ اشتغالك عن اصلاح دولتك بهذه الأمة والصواب أن تتركها وتلتفت الى اصلاح ما قد فسد من مملكتك . قال فبعد أيام جلس عضد الدولة على مشترف له على دجلة ثم استدعى بالجارية فحضرت فشاغلها ساعة حتى غفلت عن نفسها ثم دفعها الى الدجلة فغرقت وتفرّغ خاطره من حبها واشتغل باصلاح أُمور دولته فاستعظم الناس هذا الفعل من عضد الدولة ونسبوه فيه الى قوة النفس حيث قويت نفسه على قتل محبوبته . وأنا أستدلُّ بهذا الفعل على ضعف نفس عضد الدولة لا على قوتها فانه لو لم يحس من نفسه بالانفعال العظيم بحبها لما توّصل الى عدمها ولو تركها حية ثم أعرض عنها لكان ذلك هو الدليل على قوة نفسه . ولكل صنف من الرعية صنف من السياسة . فالافاضل يساسون بمكارم الاخلاق والارشاد اللطيف . والاوساط يساسون بالرغبة المزوجة بالرهبة والعوام يساسون بالرهبة والزامهم الجدد المستقيم وقسرهم على الحق الصريح . واعلم أن الملك لرعيته كالطبيب للمريض ان كان مزاجه لطيفاً لطف له التدبير

وَدس له الادوية المكروهة في الاشياء الطيبة وتحيل عليه بكل ممكن حتى يبلغ غرضه من برئه . وان كان مزاجه غليظاً عالجه بمرّ العلاج وصريحه وشديده . ولذلك لا ينبغي للملك ان يهدّد من يكفي في تأديبه الاعراض والتقطيب . وكذلك لا ينبغي ان يحبس من يكفي في تأديبه التهديد . كما انه لا ينبغي أن يضرب من يكفي في تأديبه الحبس ولا أن يقتل بالسيف من يكفي في تأديبه ضرب العصى . وتمييز هذه الحالات بعضها عن بعض اعني معرفة المزاج الذي يكفي فيه التهديد ولا يحتاج الى الحبس أو يكفي فيه الحبس ولا يحتاج الى الضرب يحتاج الى لطف حدس وصحة تمييز وصفاء خاطر ويقظة تامة وفطانة كاملة فما أشد ماتشتبه الاخلاق وتلتبس الامزجة والطباع

ويجب على الملك ان ينظر في القتل وازهاق النفس فيعلم أنه الحادث الذي لا حياة للحيوان بعده في الدنيا وانه لو اجتهد أهل الأرض كلهم على اعادته الى الحياة لم يقدروا على ذلك وبحسب هذا الحال يجب ان يكون تثبته في ازهاق النفس وهدم الصورة وتأنيه وترويه حتى تقوم الادلة على وجوب القتل فاذا وجب استعمله على الوضع المعهود من غير تأنق فيه وتنوع تعذيب وتمثيل بالمقتول

ورد عن سيد البشر صلوات عليه وسلامه (ايّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور) ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله عليّ بن أبي طالب عليه السلام فجمع عليٌّ ولده وخاصته وقال يا بني عبد المطلب لا تجتمعوا من كل صوب تقولون قتل أمير المؤمنين قتل أمير المؤمنين . لاتمثلوا بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهي عن المثلة ولو بالكلب العقور وانظروا اذا أنا مت من ضربتي هذه فاضربوا الرجل ضربة لضربة

ومن فوائد التأني والتثبت في القتل الأمن من الندم حين لا يجدي الندم . كان أفاضل الملوك والخلفاء يستعملون هذه الخطة كثيراً فلا يسرعون الى مثل رجل معروف مشهور خوفاً من أن يحتاجوا اليه بعد ذلك فيتعذر عليهم بل كانوا يحبسونه في غوامض دورهم ويقيمون له كل ما يحتاج اليه من أطعمة شهية وفواكه وثلج وأشربة وفرش وثير ويحملون اليه كتباً يلهو بها ويقطعون خبره عن الناس حتى يثبت في نفوس أهله وأصحابه انه قد هلك ثم يستصفي أمواله وأموال أصحابه ويستخرج ذخائره وودائعه ويصير في عداد الموتى فلا يزال كذلك حتى تدعو الحاجة اليه فيخرجونه مكرماً وقد تأدّب وتهذّب .

من لم يؤدّبه والداه * أدّبه الليل والنهار

هاهنا مزلة ربما وقع فيها أفاضل الملوك . وهي ان بعض الملوك ربما كان معجباً بنفسه محباً لان ينتشر عنه حديث صرامة وشهامة وسياسة قاهرة فيستهين بالقتل ويسهل عليه أمره ويبادر اليه وغرضه اثبات الهيئة واقامة السياسة من غير التفات الى ما طيّ ذلك من ازهاق النفس التي حرّمت الا بالحق . وهذ من أخطر الأمور على الملك والصواب أن لا يزال في نفسه كارهاً للقتل صادفاً عنه مهما أمكن حتى تدعو اليه ضرورة ليس فيها حيلة فحينئذ يقدم عليه بنفس قوية وجنانٍ ثابت فانّ قتل واحد أصلح من تركه حتى يحتاج الى قتل خمسة وقتل خمسة خير من تركهم حتى يدبّ فسادهم حتى تبلغ الحاجة الى قتل مائة ومن أجل ذلك قال الله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب) وقيل القتل أنفى للقتل . وقال الشاعر

بقتل الدما يا جارتي تحقن الدما * وبالقتل تنجو كل نفس من القتل

وقال المتنبي

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى * حتى يراق على جوانبه الدم

أوصى بعض الحكماء بعض الملوك قال : أيها الملك انما هو سيفك ودرهمك فازرع بهذا من شكرك واحصد بهذا من كفرك .

جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله اني زنيت فخذ الحدّ مني فأعرض عنه رسول الله والتفت الى يمينه فدار الرجل حتى حاذاه وأعاد القول فأعرض عنه رسول الله مرة أخرى فعاود القول والتمس أخذ الحدّ منه فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ازهاق النفس فقال له كمن يعلمه : ألا تكون قد قبلت أو عانقت أو ألممت ولم تفعل . قال لا يا رسول الله ولكني زنيت فالتفت رسول الله الى أهل الرجل وأصحابه كمن يعلمهم أيضاً الاعتذار عنه وقال: كأنه متغير في عقله . قالوا يارسول الله مانعرفه الاّ عاقلاً فحينئذ لم تبق للنبي صلى الله عليه وسلم حيلة فأمر باستيفاء الحدّ منه والمطامير الغامضة في التخليد فيها مايقوم مقام القتل مع الأمن من الندم

وأما أصناف العقوبات فيجب على الملك الكامل أن ينعم النظر فيها أيضاً فكم من عقوبة قد أتت على مهجة المعاقب من غير أن يراد ازهاق نفسه وأصعب ما فيها التعذيب بالنار وهي عقوبة غير مباركة لان العقوبة بالنار مختصة بالله عزّ وجلّ فلا يجوز للعبد أن يشاركه فيها . والنظر في أصناف العقوبات موكلٌ الى نظر الملك الفاضل وبحسب ما تقتضيه الحال الحاضر ولكن الاصل الكليّ فيه أن يكون الملك في نفسه كارهاً لذلك غير متحلّ به لا يبادر اليه ولا يقدم عليه الاّ اذا دعت اليه ضرورة ماسة لا يقضي حق نفسه ولا يشفي بها غيظ صدره . وهذا مقام صعب لا يرتقي اليه أحد الاّ من أخذ التوفيق بيده

قيل ان علياً عليه السلام صرع في بعض حروبه رجلاً ثم قعد على صدره ليحتزّ رأسه فبصق ذلك الرجل في وجهه فقام عليٌّ عليه السلام وتركه . فلما سئل عن سبب قيامه وتركه قتل الرجل بعد التمكن منه قال : انه لما بصق في وجهي اغتظت منه فخفت ان قتلته أن يكون للتعصب والغيظ نصيب في قتله وما كنت أحب أن أقتله الاّ خالصاً لوجه الله تعالى . قال أبرويز : الملوك يشتمون بالأفعال لا بالأقوال ويسفهون بالأيدي لا بالألسن . وقد نظم شاعر العرب هذا المعنى فقال

وتجهل أيدينا ويحلم رأينا * ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

ومما يكره للملك الانهماك في اللذات وسماع الاغاني وقطع الزمن بذلك قال الشاعر أبو الفتح البستي

اذا غدا ملكٌ باللهو مشتغلا * فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة * لما غدا وهو برج اللهو والطرب

وما دخل الخذلان على ملك من طريق اللهو واللعب كما دخل على جلال الدين بن خوارزمشاه فانه لما هرب من المغول تبعوه فكان اذا رحل عن بلدة نزلوها بعده واذا أصبح في مكان أمسوا هم في المكان يريدون قصده وهو مع ذلك مواصلٌ لشرب الخمر عاكف على الدفّ والزمر لا ينام الاّ سكران ولا يصبح الاّ مخموراً نشواناً . وعسكره في كل يوم يقلّ وأمره في كل ساعة يزيد اضطراباً ورأيه في كل لحظة يقيل وحده يفلّ وهو لا يشعر بذلك حتى قال شاعره يخاطبه

شاهازمى كران جه * بر جواهد خاست
ورمستي هر زمان نجه * بر خواهد خاست

شه مست وجهان خراب * ودشمن پس وپیش
پیداست که ازین میان جه * بر خواهد خاست

ثم استرسل ابن طباطبا في بسط الامثال التي من هذا القبيل متوخياً حرية الضمير كما توخينا نحن معه حرية النقل . بيد أنا في كل مانقلناه عنه نعود الى ضميرنا ووجداننا فنجد الحق في غير بعض ما اوردناه نقلاً عنه . اذ أن حقوق الرعية على الملك تنحصر في رعاية الحقوق ورفع المظالم ودرء المآثم وبسط رواق العدل على الناس والمساواة في اقامة الحدود المنصوصة في الدين الحنيف . وكل ما ذكره ابن طباطبا وان كان لايخرج عن ذلك الا أنه تبسطٌ مملولٌ لا يرجع اليه في حكم عام أو حق مجهول المعالم .

على أنا لم نكن نلاحظ على النقول لامر في النفس فانا نعتقد تمام الاعتقاد أن جلالة مولانا أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد حائز على كل الصفات المحمودة في آداب الدين وقائم بين الرعية بكل ما تفرضه عليه الشرعة المطهرة والمنهاج المحمدي الشريف . ولم يقم خلاف بين الناس في عدله وحكمته اللقمانية وأخلاقه المرضية . وحيث الامر فوق ما وصفنا من صحة الاميال وسلامة الآمال من شطط وكمال اعتدال في السير وعدل النشأة واستعمال وسائل الترضية مع سائر أفراد الامة فلا يتطرّق وهمٌ الى اذهان بعضهم في خلوص قلمنا من نزغة الغرض ونزعة التشيع لجانب المولى المحترم الأكبر خليفة هذا العصر السعيد عبد الحميد خان . فاستحق اذاً باحرازه لكل أسباب الاستحقاق للامامة أن يطاع ويحترم ويعزز ويوقر ويفخم ويعظم رضي الله عنه

﴿ التنبيه الثاني ﴾

﴿ في الحقوق التي لكلّ فرد على كلّ فرد ﴾

(وفيه ارشاد الى آداب العشرة العمومية)

اعلم أن كلّ حقّ من حقوق الامة بطريق العموم هو حقٌّ مقدسٌ لكل فرد من الافراد بطريق الخصوص وأن الامام فردٌ منها فله على كلّ فرد ما لكل فرد عليه . ولا قوام للحياة البشرية الاّ بالعشرة وهي على أنواع كثيرة . ومع كثرة شعوبها ووفرة أسبابها أودعها الله أسراراً من أسراره فحصل بها الاستدلال على سمو مكانته وعظيم قدرته جلّ وعلا . اذ فطر الانسان محتاجاً بجبلته الى غيره وهو سبحانه لا يفتقر الى سواه . جعل الانسان على هذه الفطرة ليقيم حجته البالغة : على أنه الغنيُّ المطلق وأن غناه الذاتي برهانه فقر الانسان الذاتي الى العشرة العمرانية

وقد حقق أهل العلم أن الانسان مدنيٌّ بالطبع . ومعنى كونه مدنياً بطبعه أنه يحتاج لاقامة شعائر العشرة الانسانية والائتناس بسواه . والعشرة العمومية لها نواميس محكمة الآيات مقررة الفصول والاحكام . ومن أهم أركانها المعاملة ولهذه آداب وأحكام فرضتها الشرائع فلو سلك الافراد فيها سبل الاستقامة والأدب لعاشوا عيشة هنيئة مرضية . ولكن قضت سنة الله في الخلق أن يوجد بينهم الشرير والصالح والشاذّ والموافق حتى تتوزّع أحكام الشرائع على المطيع والعاصي والقريب والقاصي . وهذه السنة متبادلة

في كل عصر وتحت ظل كل حكومة أو عرش كل دولة

وما من أمة من الأمم الا ولها آداب في عشرتها وعوائد ملتصقة بفطرتها يتعسر الخروج عنها والافتيات عليها سواء طابقت نواميس الاديان أو لم تطابق . والأمة الاسلامية لها شرع بين الآيات محكم الأحكام قويمها شريف المبدء وسننه أكمل من العوائد المتأصلة في النفوس وأدل على الخير منها . فلو أنصف المسلمون فيها لرحل عنهم الشقاء وتقلص العناء وباتوا راضين في أهناء سعادة وأرغد عيش فقد قال الشاعر

لو أنصف الناس لاستراح القاضي * وبات كل عن أخيه راض

أما لو لم ينصف الناس ولم يتوخوا اصلاح العشرة بآدابها فهم متعرضون لعوارض العسف لأنهم لو لم يكونوا مستحقين لما يتاح اليهم لما ولى الله عليهم من يقهرهم ويقسرهم على الاعتدال واصلاح الخواطر والشؤون

هذا وان العشرة الحقيقية تستدعي توخي الناس للمراشد القويمة والمناهج السليمة اذ بذلك يؤمنون من شرور الاعتداء عليهم من ظالم أو حاكم . وقد قرر الحكماء أن الرعية اذا غلبت عليها الاخلاق الفاضلة لقيت من عدل راعيها ما حملها على الاستزادة من أسباب الحياة الصالحة والعمران المسعود . أما اذا اذا غلبت عليها الشقوة وتحكمت فيها الشرة وتأصلت في نفوس أفرادها الأخلاق الشاذة لقيت من راعيها ولو كان عادلاً في نفسه ما يحملها على اليأس والقنوط من سعادة المستقبل . لأن الراعي الحكيم يداوي أمراض أمته بالعلاج الملائم لاخلاقها فلا يلام لو عسف وظلم في أمة بات سوء الخلق رائدها والشذوذ دثار باطنها والخروج والافتيات على النظام والدستور شعارها الظاهر . فانه بالظلم يربيها ويحول أخلاقها الى الذل والاستكانة

الممهدة لصيرورتها في حالة تستوجب الرحمة بها والاشفاق بأعقابها . وحينئذ لو عدل فيها الراعي وبسط عليها جناح الرحمة والحنان لا جناح عليه ولا اثم فيجب على الافراد أن يتبادلوا فيما بينهم آداب العشرة وأحكام المدنية الصحيحة . بأن ينبذوا من بينهم أسباب الشطط التي تحمل الملك غالباً على اساءتهم وأن يمثلوا أمام أعينهم آداب الدين وأحكام الشريعة وفصول العشرة باجمل الأخلاق وأكمل أسباب الاتحاد والوئام وأجل وسائل الاحترام المتبادل بان يوقر الصغير كبير قومه ويرحم الكبير الصغير وينظر الوزير في المصالح نظر أمانة ورزانة ولا يسمى الأرصاد والأعوان بالاخوان وأن تهمل الوشاية والسعاية والغواية وفواعل العماية . أما اذا أساء الناس التعامل فيما بينهم وعكفوا على مجاهرة بعضهم بعضاً بالعدوان وبيتوا في ضمائرهم سوءاً لأنفسهم وتمسكوا بأهداب الشقاق والشقاء وعتوا وخالفوا نواميس التربية ولم يرع كبراؤهم وأمراؤهم واجباتهم وآدابهم نحو العامة فلا اصلاح يرجى ولا أدب يسود ولا فلاح ينتظر . خصوصاً اذا استأثر الكبراء باسباب الرفه والنعيم ولم يشركوا العامة معهم في نوال أيادي الخليفة وآلائه المغنية عن طرق أبواب التحايل بالذرائع الممقوتة لا باستعمال الوسائل والمواهب المكسوبة . وقد روي عن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي أنه كان ينشد دائماً هذين البيتين :

كيف يرجى الصلاح من أمر قوم * ضيعوا الحزم فيه أيُّ ضياع

فمطاعٌ وليس فيه سداد * وسديد المقال غير مطاع

وفي هذا المقام يقول ابن طباطبا الذي اعتمدناه في نقولنا بعض الآداب من كتابه الفخري .

ولا ينبغي للرجل الكامل الاَّ أن يكون في الغاية القصوى من طلب الرئاسة أو في الغاية القصوى من تركها

اذا ما لم تكن ملكاً مطاعاً * فكن عبداً لخالقه مطيعا
وان لم تملك الدنيا جميعاً * كما تهواه فاتركها جميعا

وهاهنا موضع حكاية تشتمل على أدوات الرئاسة : قيل وردأبوطالب الجرّاحي الكاتب ولم يكن في عصره أكتب ولا أفضل منه الى الريّ قاصداً حضرة ابن العميد فلم يجد عنده قبولاً ولا رأي عنده ما يحب ففارقه وقصد اذربجان وسار الى ملكها وكان فاضلاً لبيباً فلما اختبره وعرف فضله سأله المقام عنده وأفضل عليه فأقام لديه على أفضل حال فكتب الى ابن العميد يوبخه على جهل حقه وتضييعه لمثله فمن جملة الكتاب : حدثني بأيّ شيءٌ تحتجُّ اذا قيل لك لم سميت الرئيس .؟. واذا قيل لك ما الرئاسة .؟. أتدري ماالرئاسة .؟. الرئاسة أن يكون باب الرئيس مصوناً في وقت الصون ومفتوحاً في وقت الفتح وأن يكون مجلسه عامراً بأفاضل الناس وخيره واصلاً الى كل واحد واحسانه فائضاً ووجهه مبسوطاً وخادمه مؤدباً وحاجبه كريماً طلقاً وبوابه لطيفاً ودرهمه مبذولاً وطعامه مأكولاً وجاهه معرضاً وتذكرته مسودة بالصلات والجوائز والصدقات وأما أنت فبابك لا يزال مقفلاً ومجلسك خالياً وخيرك مقنوطاً منه واحسانك غير مرجوّ وخادمك مذموم وحاجبك هرار وبوابك شرس الاخلاق ودرهمك في العيوق وتذكرتك محشوّة بالقبض على فلان واستئصال فلان ونفي فلان . فبالله عليك هل عندك غيرهذا .؟. ولولا أن أكون قد دست بساطك وأكلت من طعامك لأشعت هذه الرقعة ولكن أرعى لك حق ما ذكرت فلا يعلم بها الاَّ الله

وأنت . ووالله ثم والله ثم والله ما لها عندي نسخة ولا رآها مخلوق غيري ولا علم بها . فأبطلها أنت اذا وقفت عليها وأعدمها والسلام على من اتبع الهدى (اهـ)

والذي يقرأ هـذه النبذة المنقولة يندهش من حرية الضمير التي بلغها الكتاب في تلك الأزمنة الغابرة مع أن جماعة الغربيين يزعمون أنها بنت عوائدهم وحلية آدابهم وبرهان فضيلتهم وأننا اكتسبناها منهم . وبالجملة فان حقوق الافراد المتبادلة معلومة ومبسوطة في غير هذا الكتاب ومحورها التي تدور على رحاه هي الاخلاق الكريمة والتربية الصحيحة القويمة . فلو أصلح الناس العشرة فيما بينهم لنالوا كل خير في ظل السلطان الذي ولي أمرهم أيًّا كان وفي أيّ عصر يكون . والله وحده نسأل أن يلهمنا الصواب والحكمة ويحفظ أمتنا من كل ما يضرُّ بمصلحتها من أخلاق الشطط والشذوذ وكل فعل منبوذ

الفصل الرابع

﴿ في حقوق الامة العامة ﴾

اعلم أن حقوق الامة العامة هي الاستظلال بالحماية والرعاية والوقاية والاستنوال من أيادي الملك البيضاء والصوت المصلحي اذا أعان انتخاب أو عقدت مشاورة عامة وارشاد الخليفة الى ما يراه عقلاؤها ويجمع عليه عامتها فينظر فيه بنظر الحكمة والرحمة وأن لا يبعث فيهم روح القنوط من نوال

مايبتغون مع تمهد راحتهم ومنحهم أسباب سعادتهم ورفاهيتهم وحملهم بالجميل على شكره والرضاء عنه والدعاء بتأييده ونصره ٠

ومن حقوق الامة على امامها أن يروه مجازيا بالاحسان أهل الاحسان وبالاساءة أهلها لتكون دائماً راجية لبره خائفة من سطوته وقد قال النابغة للنعمان بن المنذر

ومن أطاعك فانفعه بطاعته * كما أطاعك وادلله الى الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة * تنهي الظلوم ولا تقعد على ضمد

وليست حقوق الامة العمومية أشياء خصيصة بالأفراد بل هي اعتماد للمصلحة من حيث هي مصلحة ٠ ويرى المليك المكاشف لأسرار الأعداء والعالم بأهل الاستحقاق وغيرهم مالا يراه العامة ٠ فما عليه الا ان يتقي الله ويقسط في الرعية ويقيم الحدّ ويبطل البدعة ويمحو الضلالة ويضرب على أيدي المفسدين ويزيل أسباب الفساد من بين العباد ٠ وقد قدمنا في الفصل الثالث ما يكفي ان يكون أنموذجاً لفهم أسرار هذا الفصل من هذا الباب

جاء في كتاب الفخري أيضاً ما يأتي بعد كلام طويل

وقالت الفرس فساد المملكة واستجراء الرعية وخراب البلاد بابطال الوعد والوعيد ٠ ولا يليق بالملك الفاضل ان يكون افتخاره بزخارف الملك مما حوته يده واشتملت عليه خزائنه من نفائس الذخائر وطرائف المقتنيات فان تلك ترهات لا حقائق لها ولا معرج لفاضل عليها ٠ وكذلك لا ينبغي له أن يكون فخره بالآباء والاجداد وانما ينبغي أن يكون فخره بالفضائل التي حصلها والأخلاق التي كملها والآداب التي استفادها والادوات التي استجادها

افتخر بعض الأغنياء عند بعض الحكماء بالآباء والأجداد وبزخارف

المال المستزاد فقال له ذلك الحكيم : ان كان في هذه الاشياء فخر فينبغي ان يكون الفخر لها لا لك وان كان آباؤك كما ذكرت اشرافاً فالفخر لهم لا لك :
قال المسجدي . كان بعض الحكماء اذا وصف عنده انسان يقول : أهو عصاميٌّ أم عظاميٌّ .؟. فان قيل له : عصاميٌّ : نبل في عينه وان قيل هو عظاميٌّ لم يكترث به . وقوله (عصاميٌّ) اشارة الى قول القائل

نفس عصام سوّدت عصاما * وعلمته الكر والاقداما

* وصيرته ملكاً هماماً *

يعني انه بعقله وبنفسه صار رئيساً وقوله(عظاميٌّ) يعني أنه يفتخر بالآباء والأجداد والعظام النخرة

قال المسجديُّ لبعض أصحاب ابن العميد ذي الكفايتين . كيف رأيت الوزير . فقال : رأيته يابس العود . ذميم العهود . سيئ الظن بالمعبود . فقال المسجديُّ . أما رأيت تلك الأبهة والصيت والموكب والتجمل الظاهر والدار الجليلة والفرش السني والحاشية الجميلة . فقال ذلك الرجل : الدولة غير السودد والسلطنة غير الكرم . والحظ غير المجد . أين الزوّار والمنتجعون . وأين الآملون والشاكرون . وأين الواصفون الصادقون . وأين المنصرفون الراضون . وأين الهبات . وأين التفضلات . واين الخلع والتشريفات . وأين الهدايا وأين الضيافات . هيهات هيهات .؟. لاتحيي الرئاسة بالترهات . ولا يحصل الشرف الا بالخذعبلات . أما سمعت قول الشاعر

أبا جعفر ليس فضل الفتى * اذا راح في فرط اعجابه
ولا في فراهة برذونه * ولا في ملاحة أثوابه
ولكنه في الفعال الجميـ * ـل والكرم الاشرف النابه

ولابن طباطبا هذا الذي ننقل عنه في هذا المعنى

ليس فضل الفتى على الناس ثو * ب ودار وبغلة ولجام
انما الفضل في تفقد جار * ونسيب وصاحب وغلام

والى هنا نختم الفصل الثالث . وفي اعتقادنا انه جمع مايطرب العقول من الفضائل لا الفضول مع التحفظ في النقول . فالافراد جميعاً لهم رابطة ولاء عمومية تربطهم بعرش امامهم فلا يمدُّ الفرد الواحد فرد أُمة الا اذا عرف عرش الامام ومال بقلبه اليه . وجنح بالعواطف عليه . ورجا الله تأييده . وحيث ذلك من شرائط العشرة العمومية والأُدب العصري في كل أمة فليعلم المسلمون كافة بسائر أنحاء المسكونة الأرضية : أن عرش الامارة الاسلامية قد استوى عليه امام المؤمنين وخليفة الرسول الأمين سيدنا وسلطاننا الغازي في سبيل الله وتأييد دينه السلطان الاعظم (عبد الحميد خان) منذ ربع قرن . ولولا أن أراد الله للأمة حفظاً من عاديات الدهر لما هيأ لها اماماً عادلاً خالداً في عرشه متوحد العقيدة منصرف الفؤاد عن اميال الأشرار منعكفاً على مايرضي ربه وينفع أمته . فليعش (عبد الحميد) اماماً لنا . وليدم ظل رعايته وارفاً علينا . وليكن ولاؤه خير ولاء . والوفاء بحقوقه خلة جميع الافراد . آمين

﴿ نبذة ختامية في الحقوق العمومية ﴾

فكما أن حقوق الامة العامة لا تنصرف عن معنى حقوق الافراد الا في أُمور السياسة التي ترتبط باحوال الشعوب والممالك من جهة البقاء الوجودي والدوام العمراني كذلك الامام مطالب لامته بحسن سياسة ملكه وحزمه فيه وفتح أبواب أفكاره للتنقيح والتصحيح والاحتياط في معاملة

الممالك الأخرى وتربية روح النشأة الجهادية ، واضفاء الاردية الواقية من نفاذ المطامع الاجنبية في داخلية البلاد ،

وقد تفنن ملوك الغابرين في وقاية الملك والولايات بأساليب التجارب والتحالك به ، ولم يهتم ملك من الملوك بشؤون الافراد قبل اهتمامه بتحصين البلاد وحفظ سلامة العباد ، خصوصاً في مثل هذا العصر المهدد بالقهر والقسر من العدو الناصب المفاجئ بالافتيات على المناصب ، ولا يذهب عن نهى العقلاء ما استحقه الخلفاء في بطون التواريخ ، فان الغربيين حفظوا من آثار سلفائنا ما انتفعوا به وسادوا وتمكنوا بسببه من بسط النفوذ على معظم البسيطة ونحن خلو من الفكر لا نهتبل الا في التقاطع والتدابر والتقاعس والتخاذل ، وقد قال حكماء الأولين : مبادي تلاشي الامم تخاذل عقلائها : فما بالنا لم نربأ بدينِنا فنحميه من عدوان الطامعين فيه ،

أروني ياملوك الاسلام وأمراء الانام ماذا جنيتم من وراء تفرقكم في السياسة والمصلحة شيئاً ؟. لم لم تلتفوا جميعاً حول عرش الامامة الاسلامية الكبرى وتصافحوا أمير المؤمنين العثماني مصافحة عهد وولاء ووفاء بحقوق البيعة الصحيحة الشرعية المرجحة لاستبقائكم مجد الأولين من آبائكم ؟. لكم أيها الامراء على جلالة الامام حقوق جمة هي أن ينظر في أموركم بعين التسوية والاحترام لاشخاصكم الكرام وأن يرشدكم الى طريق الوقاية من أعدائكم وأن يجعلكم أمناء سره وحفظاء عهده وأمراء بلاده واخوان ولائه وأعوان عرشه ، وعليكم من الحقوق مابسطنا في هذا الكتاب من وجوب قيامكم لجلالته بآداب الولاء ورعايتكم لحقوق الاسترعاء فيها جميعاً واتحدوا وارتبطوا واعلموا ان القوة الحقيقية انما هي الاتحاد الشامل ، للنشيط والخامل

من سائر أفراد الامم الاسلامية . ياهؤلاء تعالوا الى كلمة الحق والولاء لا تغرنكم ظواهر الخداع من أوربا التي اغتصبت مجد آبائكم وشرف استقلالكم وحسن اختياركم في أموركم

هذا وقت الاتحاد يا أمراء الاسلام فانتبهوا من هذه الغفلة التى أطمعت كل دولة غربية في بلاد كل أمير منكم فبادروا بالارتباط بعرش الخلافة العامة لتستوجبوا نظر جلالة الخليفة اليكم بعين الحقوق المكلف بها لأممه الراضخة الى ولائه .

ثم وهنا نذكر أسباب وجوب الحقوق العامة لكل أمة . وهي ثلاثة أن تحفظ الامة فيما بينها عهود الوفاء بالحقوق الخصيصة بالخليفة . وأن يسود الاحترام العام لشعائر الدين والرضوخ التام لأوامر الامام ونبذ وسائل التعدي على الواجبات بالخروج والشذوذ . وأن يتحلى افراد الامة بالصدق والامانة فلا ينقلون أسرار الخلافة الى أعدائها بل يكونون أحرص من الخليفة عليها اذ يهمهم أن تكون بلادهم وحقوقهم بعيدة عن مطامع الاغيار وأعداء الدار

وسياسة الملك من ادعى الدواعي الى حسن النظر في العبر . وقد قسموا السياسة الى خمسة أنواع نقلها ابن طباطبا عن الحكماء ونحن نوردها عنه وهى .

السياسات خمسة أنواع : سياسة المنزل والقرية والمدينة والجيش والملك . فمن حسنت سياسته في منزله حسنت سياسته في قريته . ومن حسنت سياسته في قريته حسنت سياسته في مدينته . ومن حسنت سياسته في مدينته حسنت سياسته للجيش . ومن حسنت سياسته للجيش حسنت سياسته للملك . وأنا لا أرى هذا لازما . فكم من عاميّ حسن السياسة لمنزله

ليس له قوة سياسة الامور الكبار ، وكم من ملك حسن السياسة لمملكته ليس يحسن سياسة منزله ، والمملكة تحرس بالسيف وتدبّر بالقلم ، واختلفوا في السيف والقلم أيهما أفضل وأولى بالتقديم ، فقوم يرون أن يكون القلم غالبا للسيف واحتجوا على مذهبهم بان السيف يحفظ القلم فهو يجرى معه مجرى الحارس والخادم ، وقوم يرون أن يكون السيف هو الغالب واحتجوا بأن القلم يخدم السيف لانه يحصل لاصحاب السيوف أرزاقهم فهو كالخادم له ، وقوم قالوا : هما سواء ولا غنى لأحدهما على الآخر ،

قالوا : المملكة تخصب بالسخاء وتعمر بالعدل وتثبت بالعقل وتحرس بالشجاعة وتساس بالرئاسة ، وقالوا : الشجاعة لصاحب الدولة ، ومن وصايا الحكماء : اجعل قتال عدوّك آخر حيلتك وانتهز الفرصة وقت امكانها ، وكل الامور الى أكفائها ومن ركب ظهر العجلة لم يأمن الكبوة ومن عادى من لا طاقة له به فالرأي له مداراته وملاطفته والتضرّع اليه حتى يخلص من شرّه ببعض وجوه الخلاص ، قالوا : وينبغي للملك ملاطفة أعدائه واخوان أعدائه فبدوام الاحسان اليهم تزول عداوتهم وان أصرّوا على عداوته بعد احسانه كانوا قد بغوا عليه ومن بغيَ عليه لينصرنه الله

وعظ بعض الحكماء بعض أفاضل الملوك فقال : الدنيا دول فما كان فيها لك أتاك على ضعفك وما كان فيها عليك لم تدفعه بقوتك ، والشرّ مخوف ولا يخافه الا العاقل والخير مرجوّ يطلبه كلّ أحد وطالما تأتّى الخير من ناحية الشرّ وتأتّى الشرّ من جهة الخير وهذا مأخوذ من قوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

وهنا موضع حكاية : تقدم نور الدين صاحب الشام الى أسد الدين شيركوه عمّ صلاح الدين يوسف بن أيوب بالتوجه الى مصر لأمر ندبه اليه فقال أسد الدين شيركوه : يا مولانا ما أتمكن من هذا دون أن يجيء صحبتي يوسف بن أخي يعني صلاح الدين : قال فتقدم نور الدين الى صلاح الدين بالتوجه صحبة عمه أسد الدين شيركوه فاستعفاه صلاح الدين من التوجه وقال ليس لي استعداد . فتقدم نور الدين بازاحة علله وجزم عليه في التوجه قال صلاح الدين : فخرجت مع عمي كارهاً وأنا كمن يقاد الى المذبح فلما وصلنا مصر وأقمنا بها مدة كان مني ما كان من تملك مصر . ثم ملكها صلاح الدين وعظمت مملكته وتملك الشام بعدها — ثم ذكر نبأ هذا متصلاً مشروحاً عند الكلام على الدولة الصلاحيه كما شاء الله تعالى ووفق

قالوا : العدوّ عدوّان . عدوٌّ ظلمك وعدوٌّ ظلمته . فأما العدوُّ الذي ظلمته فلا تثق اليه واحترز منه مهما أمكنك . وأما العدوُّ الذي ظلمك فلا تخفه كل الخوف فانه ربما استحى من ظلمك وندم فرجع الى ما تحبّ منه وان أصرّ على ظلمك انتصف لك منه من يلجأ اليه المظلومون . وربما نفع العدوُّ وضرّ الصديق. قال الاسكندر : انتفعت باعدائي أكثر مما انتفعت باصدقائي لان أعدائي كانوا يعيروني ويكشفون لي عيوبي وينبهوني بذلك على الخطاء فأستدركه. وكان أصدقائي يزينون لي الخطأ ويشجعوني عليه قال الشاعر

وما سآءني الاّ الذين عرفتهم * جزى الله خيراً كل من لست أعرف

وقيل للاسكندر بِمَ نلت هذه المملكة العظيمة على حداثة السنّ .؟. قال باستمالة الاعداء وتصييرهم بالبرّ والاحسان أصدقاء . وتعاهد الاصدقاء باعظام الاحسان وأبلغ الاكرام . قال بعض الحكماء : لا يردُّ بأس الله

القاهر مثل التذلل والخضوع كما أن النبات الرطب يسلم من الريح العاصفة بلينه لانه يميل معها كيف مالت ٠

وما لهج الملوك بشيء أشدّ من لهجهم بالصيد والقنص وهو الشيء الذي طالما اتفقت فيه النكت العجيبة والطرق الغريبة ٠ وكان المعتصم ألهج الناس به : بنى في أرض دجلة حائطاً طوله فراسخ كثيرة وكان اذا ضرب حلقة يضايقونها ولا يزالون يحدون الصيد حتى يدخلونه وراء ذلك الحائط فيصير بين الحائط وبين دجلة فلا يكون للصيد مجال فاذا انحصر في ذلك الموضع دخله هو وولده وأقاربه وخواص حاشيته وتأنقوا وتفرّجوا فقتلوا ما قتلوا وأطلقوا الباقي ٠ وقيل إن المعتصم دوّغ عدة من حمر الوحش وأطلقها لانه بلغه أنّ أعمارها طويلة

وهاهنا موضع حكاية طريفة عجيبة : حدثني صفيّ الدين عبد المؤمن ابن فاخر الأرموي قال حدثني مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير قال :

خرجنا مرة في خدمة الخليفة المستعصم الى الصيد وضربنا حلقة قريباً من الجليمة وهي قرية بين بغداد والحلة ثم تضايقت الحلقة حتى صار الفارس منا يصيد الحيوان بيده ٠ فخرج في جملة حمر الوحش حمار كبير الجثة عليه وسم فقرأناه واذا هو وسم المعتصم ٠ قال فلما رآه المستعصم وسمه بوسمه وأطلقه وكان بين المعتصم وبين المستعصم نحو من خمس مائة سنة ٠

ومن طريف ما سمعت من أمر الصيد ما حدثني به رجلٌ من أهل الأدب ببغداد قال : حدثني محمد بن صالح البازياري ٠ قال تصيدنا بين يدي السلطان آباقا يوماً فطار ونحن بين يديه ثلاثة كراكي على سمت مستقيم فأطلقنا شاهيناً فعلا وانحطّ على الأعلى من الكراكي فلطمه فوقع على

الثاني فكسره ثم وقعا على الثالث فكسراه ووقعت الثلاثة بين يدي السلطان ·
قال: فتعجب من ذلك غاية العجب وخلع علينا جميعاً · وقال الصاحب علاء
الدين في جهان كشاى: ان حلقة جنكزخان كان أمدها مسير ثلاثة شهور ·
وما أرى هذا الا مستبعداً ·

وما لهج الملوك بالصيد هذا اللهج الشديد ولا كلفوا به هذا الكلف
العظيم وأطلقوا للبازيارية الاموال الجليلة وأقطعوهم الاقطاعات السنية وسهلوا
عليهم حجابهم وقطعوا معظم زمانهم فيه باطلا ولا عبثاً فان القنص يشتمل
على فوائد كثيرة جليلة النفع · منها وهو الغرض الأشرف منه تمرين العساكر
على الركض وتعويدهم على الفروسية وادمانهم للرمي بالنشاب والضرب
بالسيف والدبوس واعتياد القتل والسفك وتقليل المبالاة لاراقة الدماء
وغصب النفوس · ومنها اختبار الخيول ومعرفة سبقها وصبرها · ومنها أن
حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم وتحفظ صحة المزاج · ومنها فضل
لحم الصيد على باقي اللحوم لانه بقلقه من الجوارح تثور حرارته الغريزية فتزيد
في حرارة الانسان · قال بعض الحكماء: وخير اللحم ما أقلقه الجارح اقلاقاً ·
ومنها الطرف العجيبة التي تتفق فيه وقد تقدم ذكر شيء منها · وكان يزيد
ابن معاوية أشد الناس كلفاً لا يزال لاهياً به وكان يلبس كلاب الصيد
الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ويهب لكل كلب عبداً يخدمه

قيل ان عبيد الله بن زياد أخذ من بعض أهل الكوفة أربعمائة الف دينار
جناية وجعلها في خزن بيت المال فرحل ذلك الرجل من الكوفة وقصد
دمشق ليشكوا حالته الى يزيد · وكانت دمشق في تلك الايام فيها سرير
الملك · فلما وصل الرجل الى ظاهر دمشق سأل عن يزيد فعرفوه أنه في

الصيد فكره أن يدخل دمشق وليس يزيد حاضراً فيها . فضرب خيمه ظاهر المدينة وأقام به ينتظر عود يزيد من الصيد . فبينما هو في بعض الأيام جالس في خيمته لم يشعر الا بكلبة قد دخلت عليه الخيمة وفي قوائمها الأساور الذهب وعليها جلّ يساوى مبلغاً كثيراً وقد بلغ منها العطش والتعب حتى كادت تموت تعباً وعطشاً . فعلم أنها ليزيد وأنها قد شذّت منه فقام اليها وقدم لها ماء وتعهدها بنفسه فما شعر الاّ بشاب حسن الصورة على فرس جميل وعليه زيّ الملوك وقد علته غبرة فقام اليه وسلم عليه فقال له : أرأيت كلبة عابرة بهذا الموضع . فقال نعم يا مولانا هاهي في الخيمة قد شربت ماء واستراحت وقد كانت لما جاءت الى هاهنا جاءت على غاية من العطش والتعب . فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ونظر الى الكلبة وقد استراحت فجذب بحبلها ليخرج . فشكى الرجل اليه حاله وعرفه ما أخذ منه عبيد الله بن يزيد . فطلب دواة وكتب له بردماله وخلعة سنية وأخذ الكلبة وخرج فردّ الرجل من ساعته الى الكوفة ولم يدخل دمشق .

وكان السلطان مسعود يبالغ في ذلك أيضاً ويلبس الكلاب الجلال الاطلس الموشاة ويسوّرها بالأساور وكان يقلل في بعض الاوقات الالتفات الى أمين الدولة ابن التلميذ الطبيب النصراني وكان فاضلا ظريفا فقال

من كان يلبس كلبه * وشياً ويقنع لي بجلدى

فالكلب خيرٌ عنده * مني وخيرٌ منه عندي

الخ . لخ . وهذا الذى أعجب به المؤرخون مثل ابن طباطبا من أمر الصيد وحكمته التي التمسوها له غير منظور اليه في عصرنا الحميدى فان معدات الحرب والكفاح الجهنمية نسخت آلات الرماح والسيوف من

أذهان الناس وصيرتها كألعوبة الاطفال لا يهتم بها الرجال وان التمرينات العسكرية التي تجري بين الجيوش الشاهانية لو رآها مثل الخلفاء والسلاطين الغابرين لذهلوا واندهشوا ولكن لكل عصر عوائد وقواعد وتقاليد .

والحركة الجمناستيكية التي ابتدعها الغربيون نسخت أيضاً تلك الحركة التي توخاها السالفون في صيدهم وقنصهم . فلنضرب عن ذلك ونذكرهنا أن عناية السالفين بالكلاب الى الحد الذى بسطه ابن طباطبا تظهر منها الحكمة في كون الكلاب فى دار السعادة غير مهانة بل يعتنى العثمانيون بأمرها ويقيتونها بالاقوات ويمنحونها جليل الصلات ثم واننا نكتفي بما أوردنا في هذه النبذة الختامية والله الموفق

﴿ الفصل الخامس ﴾

﴿ في التوفيق بين الحقوق وتوحيدها ﴾

ان الذي يفهم كل ما قدمناه ويعقله ويدرك ما نرمي اليه فيه تبين له أن الحقوق المتبادلة متفقة في مراجعها ومصادرها متحدة اتحاداً لا يقبل الانفكاك ولا التبرم . فان الأصل البشري الذي ميزه الدين بمميزات الحكمة والأخلاق ليس متعدداً في مادته أو مختلفاً في قضيته وانما اختلفت آثار فروعه في أنحاء الكون وربوعه . والحق سبحانه وتعالى اتخذ الحضرة الآدمية مظهراً لاسرار خلافته في عوالمه ومنحها التسخير لكوائن الوجود بعد أن أهبطها عن عروش التجرد من اولداعي الى أرض التعامل التي تثبت فيها دلائل

وجود الحق ومظاهر آلائه واقتداره . وختم سبحانه الروابط الشريفة بين الحق والخلق بمظاهر الرسالة المحمدية الشريفة الذي عنه امتدت جداول الاستبقاء لنظام الاسترعاء في حوافظ الولاء والوفاء . وقام بالأمر بعد النبي صلى الله عليه وسلم جميع الخلفاء وشادوا صروح مجد الدين على قواعد الحكمة والتفخيم .

ومن هذا يظهر السر المكنون في السرائر التي قدسها الأولون ويستبين وجه الاتحاد الأساسي في الحقوق العمومية . وحيث إننا بسطنا آداب الولاء وحقوق الخليفة وفصلنا ذلك تفصيلاً جمع فأوعى من أسباب ونتائج الاجتماع البشري والعشرة الانسانية وأقمنا الأدلة والبراهين على أن التمسك بأهداب الأدب الشعبي خير ما يتوخاه العقلاء الذين يدركون معنى الحياة ويفقهون أسرار الواجبات الحقة الشرعية . وأتينا بذكر ما تضمنته الشرائع على اختلافها ما بين وضعية وسماوية في هذا المعنى . فقد لاح لنا أن نجمع الحقوق المتبادلة وننظمها في سمط الوحدة الأساسية ونوفق بينها لينبعث في الناس الشعور الشريف القاضي عليهم بان يعتمدوا وجوه السعادة من وجدانهم الصحيح باعث الاتحاد والارتباط القويمين

على أن كل ممن نظره في الفصول السالفة لا يعزب عليه الاستنتاج الذي نستنتجه الآن ونرويه لبني النشأة العثمانية الكريمة . فمتى عرف كلٌّ منا أن حقوق الخلافة هي حقوقه وواجبات الامامة الشرعية هي واجباته ودلائل حياة عرشها هي دلائل حياته وأحكام بقائها هي أحكام بقائه وعزته فلا يجهل بعد ذلك ما يجب عليه من التشعر بخير شعار والتظاهر باسمى وأشرف مظاهر . خصوصاً في هذا العصر الذي تناوئنا فيه أوربا بالعدوان .

والعرش العثماني الذي هو أُسُّ الفضائل ودعامة المسائل ومرجع الأمور وموئل الكمالات يحمينا اذا التففنا بقلوبنا حوله وناديتا ربنا بأن يديم مجده ويحفظ جاهه وحوله ٠

أجل ان كلّ مسلم يمثل كلّ المسلمين وجامعتهم وآداب الاسلام وأخلاقه ٠ فحقوق الدين هي حقوق الأفراد في الواقع ٠ لأن الوفاء بها مدعاة الى السؤدد والمجد ٠ وكلاهما من مرقيات الامم وهما السببان الأوّلان في تربية النشأة الوطنية والقومية لانهما يذكيان الشعور في الافراد ويبعثان روح الشهامة والشرف وهذان ضالتا الحياة المنشودتين لها من هذه الدار المتقلبة في أثواب الامكان الالهي ٠ وحيث كانت الغاية من الحقوق والوفاء بها استبقاء المجد والسؤدد وبعث روح الشهامة والشرف وهذه الغاية كما هي مقصودة للدين والشارع والوازع كذلك هي المقصودة للأفراد الأحياء أهل الضمائر الصحيحة فلا مشاحة في التوفيق والتوحيد بين الاخلاق والعوائد والحقوق

بقي علينا أن نستفيض الحديث في الذود عن حقوق البررة الاخيار المصطفين الكرام الذين أدناهم جلالة المتبوع الاعظم من حضرته وقربهم الى سدته وحباهم وأسداهم وغمرهم بآلائه واحساناته الباهرة ٠ فان هؤلاء يجب علينا أن نحترمهم لاحترام جلالة مولانا أمير المؤمنين لهم ولانهم في الواقع من أخلص الاتباع وأخص الاصحاب وأوفى الاصدقاء وأكمل الدعاة لتأييد عرش الخلافة الحميدية المؤيدة ٠ ومن هذه حالتهم يجب حفظ اللسان من الوقوع فيهم ٠ لما ورد في الشرع القويم من النهي عن الطعن في العلماء والامراء والعظماء لانه يعوّد السفلة على السفاهة ويؤصل في نفوسهم أخلاق الفساد

ر والعناد للمقامات المحترمة المقدسة

وفراسة مولانا أمير المؤمنين كافية في تمجيد وتقديس احوال المخلصين السدة الشاهانية . بل يأمرنا الشرع الاسلامي بأن نحتفظ على مرامي أنظار الامام العام . لأنها تعتبر احكاما بعد الاختبار . والافتيات عليها يقدح في الولاء ويمس بحقوق الاسترعاء ويقضي على آداب الوفاء بالتلاشي وهي من ألزم الأمور لحفظ كيان الحياة والحياة العمرانية في العوالم الاسلامية

قدمنا أن أفاضل الرجال لا يليق بهم الا أن يكونوا مع الملوك والامراء . وعلى ذلك درج جلالة مولانا أمير المؤمنين الخليفة الاعظم أفندينا (عبد الحميد خان) فاختار أفاضل الرجال وأوفياءهم وأخلصهم لمصلحة الدين والامة وأغدق عليهم آلاءه ونعمه فأصبحوا موضوع عنايته واحترامه واكرامه واحسانه . وفي مقدمة الذين اصطفاهم امامنا الاعظم في هذا العصر الحميدي المنير سماحة مولانا صدر الصدور العظام . وقدوة المحققين الفخام . وعمدة أهل الوفاء الكرام . فرع الشجرة الهاشمية وغصن الدوحة المحمدية . الحسيب النسيب السيد محمد أبو الهدى أفندي الصيادي الرفاعي الذي أصبح ذكره في كل ملاء من أملاء المسلمين يضوع شذاه الذكي . فان هذا السيد الكريم من أخلص الناس لمولاه أمير المؤمنين وأحسنهم ولاء لجلالته وأقدسهم سريرة وأزكاهم أصلاً وأعرقهم فرعا وأكملهم أدباً وفضلاً وأعرفهم بواجبات ولائه وآداب استرعائه . ولذلك كثر أخصامه في أيامه وعظم سواد القالين القاذعين لمقامه . ولكنه ببركة صلته بربه رب العالمين نجح ولم يصله أذى من وشاياتهم وسعاياتهم . ومن حسن فراسة جلالة مولانا الخليفة أنه لما اصطفى هذا السيد الشريف الكريم أذاع أمره في أهل

الاستانة فظهر القوم منقسمين فيه . منهم الناقد والقادح في فضله وأدبه . ومنهم الفرح المسرور المنشرح صدره من نوال مثل سماحة السيد رضوان مولاه وسيده الذي حباه الفضل وأغدق عليه النعم

ولا مندوحة لنا عن بسط ما لرجال الولاء العثماني الأكيد في نفوس الناس من المكانة السامية والمقام الأرفع اذ ذلك يرشد القوم الى حسن الأدب مع الله والرسول والخليفة . وليس فيه منزع لأن يتوهم مريض القلب والصدر أن لنا غرضاً دفيناً في النفس . فأما النظار الفخام والوزراء الكرام فانهم مثال الشرف والعزيمة والصدق والاخلاص للعرش الحميدي المقدس . وكلهم يكنُّ في فؤاده أسباب الاحترام الكافي لأن يعدّ به في صفوف أخلص الناس لمولاهم خصوصاً ما أظهروه ابّان الحرب اليونانية من سداد الرأي وتأييد مبدء السياسة الحميدية الحكيمة

لو حاول أبلغ الكتاب أن يصفوا ما للامة العثمانية من الفضائل والمزايا لأعياهم ادراك ما عليه الأفراد العظام الذين عاونوا أمير المؤمنين في أمور الملك وساعدوه في تدبير شؤون الحكومة ونفذوا أوامره وسددوا آراءه وبسطوا للأمة حكمته وأدخلوا آيات سياسته الباهرة في فنون التمرين والتعليم والملحدون في هذه الدولة العظيمة ليس لهم نصيب من العقل والأدب والشرف . لأن التاريخ الذي ورثناه عن الأمم الخالية لم يترك شاردة ولا واردة من مزايا الملوك السالفين والخلفاء الغابرين . واذا أردنا مضاهاة الآثار بالآثار والمزايا بالمزايا والكمالات بالكمالات لظهر لنا السبب المرجح لهذه الدولة السنية العثمانية على سواها بأكمل وجوه الامتياز والاحترام . وسعادة كل دولة مقرونة بهمم رجالها ومنازعهم الشريفة ومبادئهم القويمة . ولم

نسمع عن دولة من تلك الدول عمرت ستة قرون وهي في كل هذا الدور الطويل مثال الشرف والمجد والاحترام لآداب الدين الكريم . يسعى خلفاؤها الراشدون في تمجيد وتقديس الشعائر الملية وتأييد وتأييد آثار الشهامة والحكمة والسداد ومضاء العزيمة

وليس بغريب ما رواه بعضهم عن اتصال نسب خلفاء هذه الدولة المؤسسين لها على التقوى بذرية الرسول صلى الله عليه وسلم وأن الجد الأعلى لآل عثمان الاطهار من عرب (صهيم) الابرار الذين هم أقرب العرب للنبي صلى الله عليه وسلم والصقهم بلحمته المباركة . فاذا صح ذلك كانت هذه الشمائل الكريمة التي تتجلى بابهى مظاهرها وأجل كمالاتها في هذه الدولة السنية شمائل محمدية طاهرة تمثل أخلاق المصطفى الكريم صل الله عليه وعلى آله وصحبه البررة الكرام . وكان اللازم الواجب على الامم الاسلامية باسرها أن تقدس آداب الخلافة العثمانية وتظهر بمظهر الاحترام الديني الخطير الشان لجلالة مولانا الأطهر سلالة الطاهرين الابرار سيدنا ومولانا الخليفة عبد الحميد خان

ولا يسعنا في ختام هذا الفصل الا أن نقول : إن الشرائع باسرها وّحدت أخلاق الأُمم من حيث اتصالها باسباب السعادة المرجوّة لعقلائها وتوحيد الاخلاق يقتضي توحيد العوائد وهذا يقتضي توحيد الحقوق والنظام السائد والشريعة المقدسة . لذلك رأينا أن نطرق هذا الباب الذي لم يطرقه سوانا وأن نثبت أن أحوال الامة الاسلامية على اختلاف مناشئ الاخلاق فيها يجب أن تكتنف بشعور التوحيد المقدس . ويلزم على ذلك أن ما يجب للخليفة العام يجب لامته وما يجب لهذه يجب لكل فرد منها .

وكذلك ما يجب على الخليفة واجب على الأمة وأفرادها

هذا ما أردنا ايراده في هذا الكتاب الجليل الوضع فلعله يصل الى أذهان المسلمين كافة في مشارق الارض ومغاربها ليكون لهم بمثابة خطيب يعلمهم واجباتهم نحو امامهم العام وخليفتهم المحترم الرأي والامر والكلمة وقد بسطنا فيه ما لو قرأه أمراء الاسلام الكرام لخضعوا بسببه للسلطة الدينية المقدسة العظيمة التي أصبح عرشها الدعيم قارًّا في دار السعادة (القسطنطينية) ولم يزل بنا القلم الى مايوغر صدراً أو يوجب عذراً . فاننا بفضله تعالى وعنايته التزمنا الحكمة في التحرير وقدمنا للأمم الاسلامية خير هدية تزكي الاخلاق وتربي النفوس وتحفظ الاسيار من الشطط والشذوذ .

وماذا عسى يقول الفرقة الفجرة بعد ذلك في هذه النصوص المقدسة التي أوردناها والنقول الغير المحتملة لتأويل أو تخريج المحتمة على كل فرد من أفراد الامة أن يكون مؤدب اللسان مهذب النفس مشذب الخلق مع خليفته وامامه مملوءاً من الرهبة والاحترام لا يفتات على قانون أو نظام .:. ومن اقترف اثماً واعتدى على هذه الحقوق المفصلة وجب قتله أو نفيه أو ايذاؤه حتى يرجع وينيب ويثوب تائباً قانتاً خاضعاً لمراشد الدين وأحكام الوزع الشرعي المقدس الذي لا خلاف في أنه من أركان الدين وقواعد الشرع الشريف المحمدي

وحيث أننا افتتحنا هذا الكتاب بمقدمة بينا فيها الغرض من وضعه وجب أن نختمه بخاتمة نبسط فيها أسباب ونتائج الأدب الشعبي الصحيح مع تبيين شرائط الاستحقاق للخلافة التي دونها الشرع في كتبه وضمنها نصوصه القويمة وأحكامه السديدة المحكمة . ولذلك نكتفي في الكتاب بما فصلناه من

فصوله والله ولي التوفيق وهو الهادي الى أقوم طريق نسأله تعالى
أن يكون لنا خير عون في كل أمورنا وشؤوننا وأن يؤيد
دولته ويحمي دينه انه هو الجواد الكريم ذو الفضل العظيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم عدد خلقه وزنة عرشه ومنتهى كلماته
صلاة وسلاماً يكونان خير عدة لنا
في الدين والدنيا والآخرة
آمين



﴿ خاتمة للكتاب متممة ﴾

لم يبق ريب لدى جميع الأمم الاسلامية في أن الامامة العامة هي حق جلالة مولانا الخليفة الأعظم والامام الأكبر سيدنا ومولانا أمير المؤمنين الغازي في سبيل الله السلطان (عبد الحميد خان) أطال الله أيام دولته وأحكم أمر خلافته وجعله سرمدي السعادة والسيادة ومنحه الحسنى وزياده . ولولا ذلك لكانت الاضطرابات في أمر الاستحقاق جارية مجراها سائرة سيرها في الأمم والشعوب . ولما كان هذا الكتاب موضوعا لبيان آداب الولاء وحقوق صاحب الاسترعاء رأينا أن نذيله بنبذة ختامية لجميع فصوله نقيم فيها الدلائل القوية على تفنيد مزاعم المرجفين المفترين الذين فتنوا المؤمنين بمفترياتهم المعيبة

يدعون أن الخلافة في قريش وأن آل عثمان ليسوا مستحقيها لأنهم غير قرشيين . هذا كل ما يتخذونه سبباً لعدم الاعتراف بالخلافة والامامة لآل عثمان الأطهار . واذا أردنا أن نساجلهم في نزاعهم رأيناهم يفرّون من الحق فرار السليم عن الاجذم والاجرب . بل يفرّون من العدالة ويشترون في كل ملاء بما يجعلهم مضطهدين في كل أمة . ولو أنهم وقفوا وقفة الباحث المدقق وناظرونا في ذلك لاقنعناهم بالدلائل السنية والبراهين الشريفة المقدسة . ولكننا لا نرى لهم ظلا يخطر على أرض بل كلما حاولنا خطابهم ومحاججتهم تراكضوا متخاذلين لائذين بالآكام أو ملتجئين بالبلاد الاوربية . ومن غريب أمرهم أنهم اذا دعوا الى الولاء قالوا انما نحن ننشد الحرية والمساواة ونطلب العدل

والمحاماة عن الحقوق المقدسة الرعية في كل أمة عربية اسلامية . فنقول لهم لكم ما تطلبون وتنشدون تعالوا ننظر في مطالبكم ونبحث في مقاصدكم فنراهم قد ولوا الادبار وحاولوا الفرار وتشيعوا في أنحاء البلاد شيعاً وباؤا بغضب الله عليهم ولعنة الناس أجمعين

ولما كانت دلائل حياة الابرار لا تتصل بمزاعمهم ولا ترتبط بمطالبهم نري اهمال أمورهم وتركهم يتخبطون في أحوالهم ويضربون في حديد بارد لا نسمع لهم قولاً ولا نجد لهم فعلاً أولى بهم لعلهم يهتدون الى سبيل الحق الذي لا مراء فيه . أما حصر الخلافة في قريش فلم يقل به أحد من الناس أبداً بل نطق الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بوجوب الطاعة لأولياء أمور المسلمين أيًا كانوا وفي أيّ عصر يكونون وفسرت ذلك السنة الشريفة بالتعميم أيضاً . وأما الحديث المفترى على النبي صلى الله عليه وسلم المقول فيه (الخلافة في قريش) فلم يصححه راوٍ من الرواة الأمناء بل اتخذه بعض المؤرخين بمثابة مزية أثرية لقريش . والا لو كان هذا الحديث صحيحاً لما ناقضته أفعال النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعال الصحابة وأقوالهم . ولولا أن المقام مقام اجمال لسردنا بالتفصيل كل المفندات لهذه المزاعم من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة الخلفاء الأربع رضوان الله عليهم أجمعين

ولا يليق بنا أن نلتفت الى أحلام الاغبياء وأوهام الادنياء . فان العناية بها تقرر في أذهان البسطاء لهم شأناً خطيراً مع أنهم يتحتون بألسنة سفهم من الجهال الصادة أحكاماً ويوهمون العامة أنهم علماء عارفون بواجبات دينهم الذي يفترون عليه أنه ينكر خلافة غير قريش . فليخسأوا فانا قالوهم ومبغضوهم تحقيقاً

لحكم الدين فيهم ٠ وقد كنا وعدنا بأن نذكر شروط الخلافة الموجبة لاستحقاقها ٠ وقد آن أن الوفاء بذلك فلنأت على ما ذكره الأئمة الأطهار في ذلك ٠

أجمع الأوّلون على أن الامامة أمر ديني لا ينظر فيه الى أحكام العقل التي يخلقها بمقدماته التي يستنتجها من قضايا الأحوال والأهوال ٠ والصبغة والجلدة واللغة لا تؤثر على موضوع ذلك ٠ لان رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم عامة لا خصوص فيها ولا اختصاص بعربي أو فارسي أو تركي أو تكروري وخليفته يجب أن يكون محتذياً مثاله في العمومية ٠ ولو كانت اللغة مثلاً شرطاً في استحقاق الخلافة لذكرها الأئمة ضمن شروطها وكذلك الجلدة والصبغة لو كانتا من شرائط الاستحقاق لما أهملتا في مأثورات الدين ٠ وحينئذ فالقول بأن الخلافة لا تكون الا في قريش قول لم يقله عاقل من العقلاء أو عالم من العلماء بل هو هذر لا يباح لما فيه من ايقاع الفتنة بين العامة الذين هم أقرب الى التقليد من سواهم لانهم قد يبنون عقائدهم على ظواهر يتلقونها من أفواه بعض المتزيين بزيّ العلم والمعرفة ٠ فالدين وحده هو المحور الأساسي الذي تدور على أحكامه رحى الخلافة ٠ وأما اللغة والجلدة فلا اعتبار لها في موضوع الخلافة لما علمت لان الخلافة أمر ديني محض لا يتوقف الاذعان به والاقرار والتسليم له على صبغة أو جلدة ٠ بل متى توفرت الشروط الستة في شخص وجبت اقامتها ووجب التسليم بها ومن خرج على حائزها فكأنما خرج على الدين ووجب على جميع المسلمين أن يقاتلوه ويهجروه ولا يعينوه في حياته ٠ لأنهم اذا أعانوه فكأنما ساعدوه على كفره أو فسقه وهذه الاعانة محظورة في الشريعة المقدسة الطاهرة

وشروط الخلافة الستة المجمع عليها من سائر الأئمة هي : الاسلام والبلوغ والعقل والحرية والذكورة وعدم الفسق بجارحة أو اعتقاد : فمتى حازها فرد من أفراد المسلمين وجبت له الحقوق التي للرسول صلى الله عليه وسلم . وللخلافة آداب وشرائط تكميلية وأحكام عمومية وواجبات انسانية بسطناها ضمن فصول هذا الكتاب . يحيط بها كل قارئ له

قال العلماء في شأن الامامة ما يأتي .

وليس كل من يصلح للامامة يصير اماماً بل لا بد من النص على ذلك إما من الله أو رسوله صلى الله عليه وسلم أو من الامام السابق أو اجماع الأمة وهذه الشروط مرعية في حالة الابتداء والاختيار . ولذلك يعزل ان كان على غير الصفات المعتبرة شرعاً أو تغلب علينا في حالة الابتداء . وخصوصا اذا فقد الأوصاف المذكورة — الى أن قالوا

فوجوب نصب الامام حكم شرعيٌّ من أهمّ الواجبات ولذلك اشتغل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين به عن دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتأخر دفنه يومين . اذ ورد أنه توفي يوم الاثنين ودفن في يوم الاربعاء . ولا يجوز تعدُّد الخليفة ومن خرج عليه يجب قتاله .

وان السلطة الدينية لا يتأتى انفكاكها عن السلطة النظامية في الاسلام وبين المسلمين لأن الدين حظر العمل بغيره فيما بين أهله وانما سياسة الملك بمثابة أمور فرعية يراعي فيها التطبيق الشرعي على مصالح الامة الحقيقية . فيظهر من كل هذا أن الامامة ثابتة باجماع أهل الرأي لجلالة مولانا أمير المؤمنين السلطان الغازي (عبد الحميد خان) لانه بلا ريب ولا وهم مسلم بالغ رشيد عاقل حرٌّ ذكر تقيٌّ صالح لا يعرف فسقاً ولا يقصد ثلماً لدين الله العزيز

الحميد . وقد أجمع على استحقاقه الخلافة كل عقلاء أمته ونودي باسمه خليفة على منابر المسلمين في سائر الأنحاء الاسلاميه التي بلغها استوائه على عرش الامامة الكبرى . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على استحقاقه ضمناً حيث شرح أحوال من يجب أسداء الامر اليهم من بعده . وقد انطبقت احكامها على هذا الامام المظيم . فلا يعزل بسبب من الاسباب أبداً الا اذا حض على كفر أو افتات على شرع الاسلام والمسلمين — حاشاه من ذلك — فهو الامام الذي عرفناه تقياً صالحاً ورعاً زاهداً ذا أميال شريفة وآمال طيبة كريمة . سلك رضي الله عنه مسالك السلفاء الصالحين فصرف قلوب رعيته عن الاشتغال بغير الدين كما قدمنا لك ذلك مفصلاً في بابه . وعلى هذا أصبح مولانا الخليفة موضوع آمال أمم الاسلام ومرجع احترام جميع أفرادها . وانا أول المذعنين بذلك القائلين (لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وان امامنا بعد الخلفاء الراشدين السالفين اليوم هو جلالة الامام عبد الحميد خان . فابقه اللهم أبداً وأيده سرمداً وأصلح أحواله وأنجح آماله وقدّس في الأمم أمياله وانصر جيشه وارفع كلمته وأتم سنته واحفظ له عرش خلافته يارب العالمين)

هذا وفي الختام نرفع أكف الضراعة والابتهال الى الحق جلّ وعلا أن يوفق الرجال الكرام . أهل الرأي في الاسلام . الشرفاء الفخام . والصدور العظام . أعوان الولاء العام . ومظاهر الاخلاص التام . لجلالة مولانا الامام . ألا وهم وزراؤه الاخيار . وأمراء ممالكه الاطهار . الذين أيدوه وعززوه ونصروه وحموا مركزه بالروح والمال المتألف منهم مجلس الوكلاء والنظار والمتشرف باشرافهم كل ديوان ونظام كصاحب الفخامة الصدر الاعظم

وصاحب الدولة وزير الحربية البحرية والبرية وصاحب الدولة وزير الخارجية وأصحاب الدولة وزير الداخلية والنافعة والمالية ورئيس مجلس الشورى وأعضائه وسائر الذين لهم صلة بحكومة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وبالأخص السادات الكرام . الأشراف العظام . العلماء الأعلام . وصاحب الفخامة والدولة والسماحة مولانا شيخ الاسلام وموضوع ثقة الأنام في التراثي العام . نختص من هؤلاء السادة . أهل السعادة والسيادة . والكرامة والوفاء . والشهامة والولاء . المولى الحسيب النسيب الشريف العظيم رفاعي زاده سيادتلو سماحتلو صدر الصدور العظام السيد محمد أبي الهدى أفندي الصيادي مرشد أهل البداية . والآخذ بايدي النهاية . امام السلوك . ومبين السبيل الاشرف المسلوك . أخلص المخلصين لمولاه . وسبب اختصاصنا لسماحته هو أنه سبق فأبان مزايا الأدب مع الأئمة أولياء أمور المسلمين في كتب جمة لو وسعها المقام لسردناها

قوم سماحتهم غيث ونجدتهم * غوث وآراؤهم في الخطب شهبان
تلقاهم ورماح الخط حولهم * كالأسد ألبسها الآجام خفان
صانوا النفوس عن الفحشاء وابتذلوا * منهن في سبل العلياء ما صانوا
المنعمون وما منوا على أحد * يوما بنعمي ولو منوا لما مانوا

نفع الله بهم الاسلام والمسلمين ووفقهم لأن يكونوا دائما لرضاء جلالة الخليفة محرزين آمين

تم

تقريظ الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله الحق . والصلاة والسلام على سيد الخلق . أقول : إن من مثيرات أسباب الرضاء العام . ومن دواعي اكتساب ثقة الانام ظهور القوم بمظهر الولاء الصحيح لصاحب الخلافة العظمى . وعرش الامامة الأسمى . وإن أجلّ مرشد لآداب الامم . وأصدق دستور للهمم . هذا الكتاب الجليل الذي قام بتأليفه حضرة الشهم العريق . والفاضل الصديق محمد بك حلمي صادق نجل المرحوم علي باشا صادق ناظر المالية المصرية سابقاً وصاحب ومحرر جريدة الأفكار

ولما كانت الحثالة الباغية والفئة الطاغية قد تجاوزت كل أدب وحادت عن كل سبيل قويم كان لهذا الكتاب العظيم سلطان على النفوس محترم . خصوصاً وأنه قد جمع فأوعى من آداب وقواعد . وفضائل وفوائد . لو رسخت في نفوس الامم لفازت بسعادة الحال والاستقبال . ولو أن عقلاءنا حاولوا تخليص السرائر القومية من أخلاط الفساد العمومي وشوائب الاعتداء على الحقوق المقدسة ووقفوا بارشادهم الصحيح مواقف الوزاع الأمناء . الحافظين لعهود الوفاء والولاء . لكانوا قد أدّوا ما وجب عليهم لدينهم وأممهم . ولكن أنّى يكون ذلك من قوم آثروا الرقدة على النهضة والاضطراب على الثابت في الحكمة وبسط أسرار الرحمة على العامة والخاصة .

وعلى كل حال فنوجز في المقال ونتادى مع مؤلف هذا الكتاب المفيد بوجوب الاعتراف والاذعان لجلالة مولانا أمير المؤمنين السلطان الغازي عبد الحميد بالامامة والخلافة لأنه هو وحده القائم بدين الله فينا الرئيس الشرعي والوازع المرعي • ويجب على كل ملاء من أملاء المسلمين في مشارق الارض ومغاربها أن يتخذوا هذا الكتاب بمثابة دستور عملي وقانون شرعي يسيرون على منهجه القويم الذي يدل أشرف دلالة على خواص السعادة التي لا تستثار أسبابها الا بالتريض والاستبصار في حقوق الجامعة العثمانية الاسلامية

وفق الله حضرة المؤلف الكريم سليل الكرام العظام الى ما فيه خير الأمة والدين ليكون خير قدوة لغيره من الاتراب والاخدان • وفي الختام ندعو لجلالة مولانا الخليفة الأعظم بتأييد العرش وتأييد السيطرة العامة على سائر الأمم الاسلامية وغيرها في ظل الدين القويم وتحت الرعاية الصمدانية والعناية الرحمانية ان ربي قدير على مايشاء وهو حسب المخلصين ونعم الوكيل

ويجمل بي أن أنشط حضرة صديقي المؤلف بتهنئته بما وفق اليه من خدمة ولاء الأمة والجمع بينها وبين امامها في حظيرة الوفاء والأدب العام أكثر الله من أمثاله في البلاد الاسلامية حتى يستعيد المسلمون ما فقدوا ويتقوا الله فيما وجدوا ويحسنون صنعاً • جمعهم الله جميعاً على الهدى ووفقهم لما فيه نفعهم ونفع دينهم القويم • آمين

محمد محمد الشربتلي

صاحب جريدة النهج القويم

بمصر